قصيدة

الكواكب الدُرِيَّة في مدح

خير البريَّة

(البُردَة المُباركة)

للإمام

شرف الدين أبي عبد الله محمَّد بن سعيد البوصيري المالكي

مع

مختصر شرح شيخ الإسلام إبراهيم الباجوري الشافعي

و

تصحيحٍ لأبياتٍ منها

للحافظ المجتهد سيدي عبد الله بن الصديق الغماري الحسني

إصدار

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم - فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة موجزة للإمام شرف الدين أبي عبد الله محمَّد بن سعيد الصَّنهاجي البوصيري المالكي رحمه الله تعالى

اسمه وكنيته:

هو الإمام الصوفي، والشاعر الأديب، سيدي شرف الدين أبو عبد الله محمَّد بن سعيد حمَّاد بن محسن الصَّنهاجي البوصيري المالكي الشاذلي، والبوصيري نسبة إلى بلدته أبو صِير بين الفيوم وبني سويف بصعيد مصر.

مولده ونشأته:

ولد رحمه الله تعالى في أول شهر شوال عام 608 هجري الموافق مارس 1213 رومي ببلدة دلاص، حيث نشأت أُمُّه، وشبَّ في أبو صِير، وكان منها أبوه، ولذلك انتسب إليها فصار يعرف بـــ "البوصيري"، وينتمي أسلافه إلى فرعٍ من قبيلة صنهاجه من بلاد المغرب، وقد نزحوا منها لمصر واستقروا بها.

انتقل رحمه الله تعالى من بلدته أبو صِير في صباه واستقر بالقاهرة، وقد كان رحمه الله تعالى فقيرًا، ولكنه كان يُحسن الكتابة وله خطٌ جميل، فاشتغل فترةً في كتابة شواهد القبور، ثمَّ التحق بوظيفة كاتب للحسابات بمدينة بلبيس بالشرقية، وهناك أمضى بضع سنوات في الوظيفة، لكنه لاقى منها الكثير من المتاعب، وقد صوَّر بعض ما رآه فيها من انحرافات ووشايات واستغلال للسلطة في بعض أشعاره، وقد غادر رحمه الله تعالى الشرقية عائداً إلى القاهرة، وافتتح بالقاهرة كُتَّاباً لتعليم الأطفال، ولكنه عانى أيضًا في هذا الكُتَّاب وسطَّر هذا في شعره أيضًا، وقصد أخيرًا الإسكندرية واستوطن بها حتى آخر حياته، وقد عاصر في حياته عددًا من سلاطين المماليك كالظاهر بيبرس.

دراسته:

تلقى رحمه الله تعالى في زيارته الأولى للقاهرة بعض العلوم الشرعية واللغوية في أحد مساجدها الصغيرة، وفي الإسكندرية تعرَّف رحمه الله تعالى على شيخ الإسكندرية وعالمها الجليل سيدي أبي العباس المرسي الشاذلي رحمه الله تعالى، ولازمه وأقبل على طريقته الصوفيَّة وتتلمذ على يديه صُحبة الإمام ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى.

مؤلفاته:

انكب رحمه الله تعالى على قراءة السيرة النبوية الشريفة، ومعرفة أخبار ومواقف الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ثم انطلق يُنشد العديد من القصائد المميَّزة، والتي تجلى فيها حُبُّه لسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ذلك قصيدته "الكواكب الدُرية في مدح خير البرية" الشهيرة بـــ "البردة"، ويروى أنَّه سماها بـــ "البردة" لأنه كان مريضًا فرأي النبي صلي الله عليه وآله وسلم وقد حنا عليه وغطَّاه ببردته أو عباءته، فشُفِيَ بعدها وبرأ من مرضه.

وله رحمه الله تعالى القصيدة "الهمزية"، والتي لا تقل في روعتها عن "البردة"، ويقول فيها:

كيف ترقَى رُقِيِّك الأَنبياءُ يا سماءً ما طاوَلَتْها سماءُ

وقد عارض رحمه الله تعالى قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير، ومن أبياتها:

إلى متى أنتَ باللَّذاتِ مَشغُولُ وَأنتَ عن كلِّ ما قَدَّمْتَ مَسؤُولُ

في كلِّ يَوْمٍ تُرَجِّي أن تتوب غدا وَعَقدُ عَزمِكَ بالتَّسوِيفِ مَحْلُولُ

وله رحمه الله تعالى أيضًا القصيدة "المُضرية في الصلاة على خير البريَّة"، والقصيدة "المُحمَّدية"، ولامية في الردِّ على اليهود والنصارى بعنوان: "المخرج والمردود على النصارى واليهود"، وقد ترك رحمه الله تعالى إرثًا قيِّمًا للأجيال اللاحقة، تمثل في عددٍ كبيرٍ من القصائد، والتي ضمَّها ديوانه الشعري.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى بالإسكندرية عام 694 هجري الموافق 1295 رومي، ودفن بجوار مسجد شيخه الإمام أبي العباس المرسي رحمه الله تعالى.

رحمه الله رحمة واسعة، وألحقنا به، ونفعنا ببركاته وأسراره

اللهم آمين آمين آمين

ترجمة موجزة لشيخ الإسلام الإمام إبراهيم بن محمَّد الباجوري الشافعي رحمه الله تعالى

اسمه:

هو شيخ الإسلام الإمام العلاَّمة إبراهيم بن محمَّد بن أحمد الباجوري الشافعي، والباجوري نسبة إلى باجور من مديرية المنوفية بمصر.

مولدة ونشأته:

ولد رحمه الله تعالى عام 1198 هجري الموافق 1784 رومي، ونشأ في حجر والده وقرأ عليه القرآن، وقَدِم الأزهر الشريف لطلب العلم عام 1212 هجري الموافق 1800 رومي، وهو ابن أربعة عشر عامًا، ولَّما دخل الفرنسيون مصر عام 1213 هجري الموافق 1801 رومي خرج إلى الجيزة وأقام بها حتى خرج الفرنسيون عام 1216 هجري الموافق 1804 رومي، فرجع إلى الأزهر واشتغل بالعلم.

دراسته:

أخذ رحمه الله تعالى العلوم عن كبار علماء عصره الأعلام كالشيخ محمَّد الأمير الكبير المالكي، والشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ داود القلعاوي، والشيخ محمِّد الفضالي، والشيخ حسن القويسني، وغيرهم.

صفاته:

كان ديدنه رحمه الله تعالى التعلم والاستفادة، والتعليم والإفادة، وكان له حسبٌ جسيم لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لسانه رطبًا بتلاوة القرآن وذكر الله تعالى، صارفاً زمنه في طاعة مولاه شاكرًا له على ما أولاه.

تلاميذه:

تخرَّج على يديه رحمه الله تعالى طائفةٌ كبيرةٌ من علماء الأزهر الشريف من أبرزهم الشيخ مصطفى العروسي الذي تولى مشيخة الأزهر الشريف من بعده، والشيخ رفاعة الطهطاوي الذي لازمه ودرس عليه (شرح الأشموني) و(تفسير الجلالين) وغيرهما.

مؤلفاته:

ظهرت عليه رحمه الله تعالى آيات النجابة منذ صغره، فخطَّ العديد من التآليف الجامعة، وقد حصل الانتفاع بتآليفه في حياته وبعد مماته، ومن هذه المؤلفات:

1. حاشية الباجوري على "رسالة في لا إله إلا الله" للعلاَّمة الشيخ محمَّد الفضالي.
2. تحقيق المقام على "كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام" للعلاَّمة الشيخ محمَّد الفضالي.
3. فتح القريب المجيب بشرح "بداية المُريد" للشيخ السباعي.

4. حاشية على "مولد الإمام ابن حجر الهيتمي".
5. حاشية على "شرح السنوسي" في علم المنطق.
6. حاشية على "متن السلم المرونق" في المنطق للعلاَّمة الأخضري.
7. حاشية على "متن السمرقندية" في الاستعارات.
8. فتح الخبير اللطيف بشرح "متن الترصيف" للشيخ عبد الرحمن بن عيسى.
9. حاشية الباجوري على "أم البراهين" للعلاَّمة السنوسي.
10. حاشية على "مولد الشيخ أحمد الدردير".
11. فتحُ ربِّ البرية على "الدُّرَّة البهيَّة نظم الأجرومية" للعلاَّمة العمريطي.
12. حاشية على "قصيدة البُردة" للإمام البوصيري، وهي التي بين أيدينا.
13. حاشية على "بانت سعاد" في مدح المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.
14. تُحفة المريد على "جوهرة التوحيد" للإمام برهان الدين إبراهيم اللقاني.
15. مِنَح الفتاح على "نور المصباح" في أحكام النكاح.
16. التُحفة الخيرية على "الفوائد الشنشورية" في علم المواريث.
17. الدُّر الحِسان على "فتح الرحمن فيما يحصل به الإسلام والإيمان" للعلاَّمة الزبيدي.
18. المواهب اللدنية على الشمائل المحمَّدية.
19. حاشية على شرح العلامة ابن قاسم الغزيِّ على "متن الشيخ أبي شجاع".
20. حاشية على "جمع الجوامع".
21. حاشية على "شرح السعد على العقائد النسفية".
22. حاشية على "المنهج" إلى كتاب الجنائز.
23. حاشية على شرح "منظومة الشيخ البخاري في التوحيد".

مناصبه:

تقلَّد رحمه الله تعالى مشيخة الأزهر الشريف عام 1263 هجري الموافق 1847 رومي، و لم يزل مستمرًا على التدريس مع قيامه بشؤون المشيخة، فقرَّأ (التفسير الكبير) للفخر الرازي وهو شيخ للأزهر، وتلقاه عنه أفاضل العلماء وكبار الأعيان، و لم يتمكن من إكماله لضعفه، وقد كان رحمه الله تعالى مهيبًا بين الأنام وعند الولاة والحُكام.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى عام 1277 هجري الموافق 1860 رومي، بعد أن عاش نحوًا من ثمانين عامًا، قضاها في طلب العلم وتعليمه، وصُلِّيَ عليه بالأزهر الشريف، وأُجريت له المراسم المعتادة من قبل زملائه من العلماء وتلاميذه النجباء، وشُيِّعَ في جنازة مهيبة، تتفق وجهاده في سبيل رِفَعة الأزهر الشريف وطلابه وعلمائه.

رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وألحقنا به في مستقر رحمته

اللهم آمين آمين آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

[في الغزل وشكوى الغرام]

1. أَمِـــنْ تَـــذَكُّرِ جِـــيرَانٍ بِـــذِي سَـــلَمِ
مَزَجْـــتَ دَمْعًـــا جَـــرَى مِـــنْ مُقْلَـــةٍ بِـــدَمِ

قد جرَّد المصنف من نفسه شخصًا مزج دمعه الجاري من مقلته بالدم، وخاطبه بذلك مستفهمًا عن سبب مزج الدمع الجاري من المقلة بالدِّم، ما هو؟ هل هو تذكر الجيران المقيمين بذي سلم؟ أو هبوب الريح من جهة كاظمة، وإيماض البرق في الليلة الظَّلماء من إضم؟ وعُلم من ذلك: أن "**الهمزة**" للإستفهام، و"**مِنْ**" للتعليل، و" **تَذَكُّرِ**" مصدر تَذكَر وهو ضدُّ النسيان، والمراد بـــ "**الجِيرَان**": المحبوبون، والباء: للظرفية، فهي بمعنى في، والمراد "**بِذِي سَلَمٍ**" موضع بين مكة والمدينة، و"**المزج**": الخلط، وكنى بمزج الدمع بالدم عن كثرة البكاء، و"**الدمع**": ماء يصعد إلى الدماغ، فيسيل من مجرى العيون بسبب شدة الحرارة الغريزية عند حادث سرورٍ، أو حزنٍ، ويكون باردًا للسرور، وساخنًا للحزن، و"**الجري**": السيلان بشدة، و"**الْمُقْلَة**": شحمة العين التي تجمع السواد والبياض، و"**الدم**": أحد الأمشاج الأربعة[1] التي خُلق منها الإنسان، وفي هذا البيت براعة استهلال؛ لأن فيه إشارة إلى أن هذه القصيدة في مدح النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، حيث ذكر فيه المواضع التي بقرب المدينة الشريفة.

2. أَمْ هَبَّـــتِ الـــرِّيحُ مِـــنْ تِلْقَـــاءِ كَاظِمَـــةٍ
وَأَوْمَـــضَ البَـــرْقُ فِـــي الظَّلْمَـــاءِ مِـــنْ إِضَـــمِ

"**أَمْ**": حرف عطف يطلب بها، وبالهمزة التعيين، وأما هبوب الريح من جهة كاظمة؛ فلأن المُحب دائمًا يفكر في محاسن محبوبه، فإذا هبت الريح من جهة موضعه تخيل أنها هبت روائحه إليه.

وأما "**إيماض البرق من إضم**"؛ فلأن من عادة المحبين أن يرتاحوا للبرق إذا لمع من جهة ديار الأحبة، فالمُحبُّ يتخيل عند لمعان البرق أنه يرى ديار المحبوب، و"**هبوب الريح**": هَيجانها، و"**تِلْقَاءِ**": بمعنى حذاء، و"**كَاظِمَةٍ**"[2]: اسم موضع قاله الجوهري، و"**الإيماض**": اللمعان الخفيف، و"**الظَّلْمَاءِ**": صفة لموصوف محذوف والتقدير في الليلة الظلماء، وإنما خصَّ الليلة الظلماء بالذكر؛ لأن الضوء في الظُّلمة أجلى، و"**إِضَمِ**": اسم لجبل، وقيل اسم لواد بقرب المدينة الشريفة.

---

(1) الأمشاج: جمع مشيج، وهو كل شيئين مختلطين وهي: الماء والهواء والتراب والنار.

(2) هو اسماعيل بن حماد، أبو نصر: أول من حاول الطيران ومات في سبيله، لغوي من الأئمة، أشهر كتبه (الصحاح)، توفي سنة 393 هجرية.

3. فَمَـــا لِعَيْنَيْـــكَ إِنْ قُلْـــتَ اكْفُفَـــا هَمَتَـــا
وَمَـــا لِقَلْبِـــكَ إِنْ قُلْـــتَ اسْـــتَفِقْ يَهِـــمِ

لَّما سأل الناظم عما ذكر ولم يرد عليه المسؤول جوابًا، نزل الناظم المؤول منزلة المنكر، وتعجب من حاله على فرض صدقه في الإنكار، فقال: "**فَمَا لِعَيْنَيْكَ...** إلخ" أي: إذا صدقتَ في إنكارك الحب؛ فأي شيء ثبت لعينيك أوجب لهما أنك إن قلت لهما: "**اكففا همتا؟**"، وأي شيء ثبتَ لقلبك أوجب له أنك إن قلت له: "**اسْتَفِقْ يَهِمِ؟**"، و"**مَا**" في الموضعين اسم استفهام، ومعنى "**اكْفُفَا**": أمسكا عن البكاء، و"**همتا**" بمعنى: سالتا، أي: همتا دمعًا، و"**القلب**": لحم على شكل الصنوبر، وقال بعضهم: القلب سرٌّ وضعه الله في هذه اللحمة فتسميتها قلبًا لحلوله فيها، "**اسْتَفِقْ**": أفق مما أنت فيه، "**يَهِمِ**": مضارع هام يهيم: إذا قام به الهيام، وهو داء كالجنون ينشأ من العشق.

4. أَيَحْسَـــبُ الصَّـــبُّ أَنَّ الحُـــبَّ مُنْكَـــتِمٌ
مَـــا بَـــيْنَ مُنْسَـــجِمٍ مِنْـــهُ وَمُضْـــطَرِمِ

لَّما سأل المصنف المخاطب السؤال المسكت وألزمه الإلزام المبهت، رجع إلى تغليظه في الإنكار فقال: "**أيحسب الصب...** إلخ"، "**الهمزة**": للاستفهام الإنكاري، و"**يَحْسبُ**": بكسر السين وفتحها أي: يظن، و"**الصَّبُّ**": العاشق من قولهم صبَّ الماءَ؛ لأنه لَّما كان كثير البكاء فكأنه يصب الدمع، وقال بعضهم: من "الصبابة"، وهي رقَّة العشق وحرارته، و"**الحُبُّ**": عرَّفه بعضهم بأنه صفاء الحال بين المحب والمحبوب، وقوله: "**مُنْكَتِمٌ**" أي: مستترٌ، و"**ما**": اسم موصول بمعنى الذي، و"**الْمُنْسَجِم**": السائل، و"**الْمُضْطَرِم**": المشتعل.

والمعنى: لا يظن العاشق أن الحب مستتر عن الناس الذي هو بين دمع سائلٍ، وقلبٍ مشتعلٍ من نار الحبِّ، وكل منهما من آثار الحب مع كونهما ظاهرين، وحينئذ فإنكار الحب غلط.

5. لَـــوْلاَ الهَـــوَى لَـــمْ تُـــرِقْ دَمْعًـــا عَلَـــى طَلَـــلٍ
وَلا أَرِقْـــــتَ لِـــــذِكْرِ البَـــــانِ وَالعَلَـــــمِ

لَّما غلط المصنف المسؤول في إنكاره الحب؛ استدل عليه بأدلةٍ فقال: "**لَوْلاَ الهَوَى...** إلخ"، و"**لَوْلاَ**": حرف يدل على امتناع الجواب لوجود الشرط، فالمعنى: امتنع عدم اراقتك دمعًا على طلل؛ لوجود الهوى، و"**الهَوَى**": مصدر هوى- بكسر الواو-، إذا أحب، فهو بمعنى الحب.

وقوله: "**لَمْ تُرِقْ دَمْعًا**" أي: لم تصبّه، و"**الطَلَلُ**": ما بقى من آثار الدار مرتفعًا، و"**عَلَى**" الداخلة عليه: للتعليل؛ أي: لأجل طللٍ، و"**أَرِقت**" - بكسر الراء- بمعنى: سَهرتَ، و"**البَانُ**": شجر طيب الريح، و"**العَلَمُ**": يطلق على معانٍ منها الجبل والرمح، أي: ولا سهرت لذكر البان والعلم الكائنين بمحلِّ المحبوب، ويحتمل أنه شَبَّه المحبوب بهما في طيب الرائحة وحسن الهيئة وطول القامة.

6. وَلا أعارَتْـــكَ لَـــوْنَى عَبْـــرَةٍ وضَـــنًى
ذِكْـــرَى الخِيـــامِ وذِكَـــرَى ســـاكِنِي الخِـــيَمِ

"**أعارَتْكَ**": أعطتك على سبيل العارية، وقوله: "**لَوْنَى عَبْرَةٍ وضَنًى**": المراد باللونين هنا النوعان، و"**العَبْرَة**" - بفتح العين-: الدموع، و"**الضَنَى**": المرض، وقوله: "**ذِكْرَى الخِيامِ وذِكَرَى ساكِنِي الخِيَمِ**" أي: تذكر الخيام، وتذكر ساكني الخيام، وكل من "**الخِيامِ**" و"**الخِيَمِ**": جمع خيمة، وهي بيت تتخذه العرب من عيدان الشجر.

7. فَكَيْـــفَ تُنْكِـــرُ حُبًّـــا بَعْـــدَ مَـــا شَـــهِدَتْ
بِـــــهِ عَلَيْـــكَ عُـــــدُولُ الـــــدَّمْعِ وَالسَّـــــقَمِ

لَمَّا أقام المصنف على المسؤول الأدلة على حُبِّه؛ أنكر عليه دوامه بعد ذلك على الإنكار، فقال: "**فَكَيْفَ تُنْكِرُ**... إلخ"، و"**كَيْفَ**": حال مقدمة مضمنة معنى الاستفهام على وجه الإنكار، ومعنى "**تُنكِرُ**": تجحد، والجحد هو النفي بعد العلم بخلافه قبله، "**شَهِدَتْ**" بمعنى: دلت، و"**العُدُولُ**": جمع عدل، وهو من لا ترد شهادته، و"**الدَّمْعُ**": هو الماء الجاري من العين، و"**السَّقَمُ**"- بفتحتين-: المرض، وإنما ذكر كونهم عدولاً للإشارة إلى أنه لا يمكن المخاطب رد شهادتهم.

8. وَأثْبَـــتَ الوَجْـــدُ خَطَّـــيْ عَبْـــرَةٍ وَضَـــنًى
مِثْـــلَ البَهَـــارِ عَلَـــى خَـــدَّيْكَ والعَـــنَمِ

"**الوَجْدُ**": هو الحزن بسبب الحُبِّ، وقيل: نيران أشواق تنشرها رياح المحبة عند سماع ذكر المحبوب، وقوله: "**خَطَّي عَبرةٍ**" - بفتح العين- أي: خطين من الدموع، وقوله: "**وَضَنى**": عطف على "**خَطَّي عَبرة**" لكن على تقدير مضاف، أي: وأثر ضنى، وقوله:"**مِثْلَ البَهَارِ**... إلخ": صفة لكل من خَطَّيْ العبرة والضنى؛ لأن البَهار - بفتح الباء الموحدة- وردٌ أصفر، وأثر الضنى صفرة الوجه، فأثر الضنى مثل البهار في الصفرة، و"**العَنَمُ**" - بفتح العين والنون-: شجر له أغصان حُمر، وقيل: وردٌ أحمر، والخطان من العبرة أحمران لامتزاج الدم بالدمع، فالخطان من العبرة مثل العنم في الحمرة، والمعنى: وكيف تنكر حُبًّا بعد ما أثبت الوجد على خديك علامتين ظاهرتين على الحُبِّ، فكل من رآك يعرف الحُبَّ في وجهك؟!.

9. نَعَــمْ سَــرَى طَيْــفُ مَــنْ أَهْــوَى فَــأَرَّقَنِي
وَالحُــــبُّ يَعْتَــــرِضُ اللَّــــذَّاتِ بِــــالأَلَمِ

لَّما اتضح حال المسؤول مما هو عليه من الحُبِّ، ولم يبق له سبيلٌ إلى الإنكار أقرَّ واعترف بذلك، حيث قال: "**نَعَمْ**... إلخ"، و"**نَعَمْ**": حرف إيجاب لما سبق، فكأنه قال: صدقت أيها السائل فيما نسبتني إليه من الحب، وأن سبب مزج الدمع الجاري من المقلة بالدم تذككر المحبوبين، فقال له السائل: وما سبب تذكرك لهم؟ فقال: "**سَرَى** ...إلخ"، وصلة "**سَرَى**" محذوفه وتقديرها "**سَرَى إِلَيَّ**" أي: سار إليَّ ليلاً؛ لأن السُّرَي هو السير ليلاً، وقوله: "**طَيْفُ مَنْ أَهْوَى**" أي: خيال من أُحِبُّ، و"**أَهْوَى**" مضارع هوى- بكسر الواو- بمعنى أُحِبُّ بخلاف هوى- بفتح الواو- فإنه بمعنى سقط، وقوله: "**فَأَرَّقَنِي**" أي: أسهرني، وقوله: "**وَالحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بِالأَلَمِ**" أي: يدفعها بالألم، يقال اعترضه بالسهم إذا دفعه به، والمراد بـــ "**اللَّذَّات**": ما كان فيه من النوم والتسلي عن المحبوبين، وبـــ"**الأَلَم**": ما ينشأ عن الحُبِّ من شدة الوجد.

10. يَــا لائِمِــي فِي الْهَــوَى العُــذْرِيِّ مَعْــذِرَةً
مِنِّــــي إِلَيْــــكَ وَلَــــوْ أَنْصَــــفْتَ لَــــمْ تَلُــــمِ

لَّما أقرَّ المسؤول بالحُبِّ، لامه السائل فيه، فرجع المسؤول على السائل يوبخه في لومه عليه فيه، فقال: "**يَا لائِمِي**... إلخ"، وقوله: "**فِي الْهَوَى العُذْرِيِّ**" أي: الهوى المنسوب إلى بني عُذرة - بضم العين-، وهم قبيلة مشهورة باليمن، يودِّي بهم العشق إلى الموت؛ لصدقهم في الحُبِّ ورقة قلوبهم، وقوله: "**مَعْذِرَةً**" أي: أعتذر معذرة أو أقدم معذرة، وقوله: "**وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ**" أي: لأن الحُبَّ ليس اختياريًا حتى يلام عليه، بل هو قهري، ولا يلام إلى على الأمر الاختياري.

11. عَــــدَتْكَ حَــــالِيَ لا سِــــرِّي بِمُسْــــتَتِرٍ
عَــــنِ الْوُشَــــاةِ وَلا دَائِــــي بِمُنحَسِــــمِ

لَّما أبدى له المعذرة في الهوى، ووبخه في اللوم عليه فيه، فلم يرجع عن اللوم، استعطفه بالدعاء له فقال: "**عَدَتْكَ حَالِيَ**" أي جاوزتك حالي، وقوله: "**لا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ عَنِ الْوُشَاةِ**": "**السِرُّ**": ما يكتمه الشخص عن غيره، و"**الْوُشَاة**": جمع واشٍ، وهو الذي يشي الحديث بين المُحبِّ والمحبوب أي: يزينه ويزخرفه لأجل الإفساد بينهما، قوله: "**وَلا دَائِي بِمُنحَسِمِ**" أي: ولا دائي الحاصل بسبب الحُبِّ بمنقطع بوصل المحبوب، ومؤانسته.

12. مَحَضْـــتَنِي النُّصْـــحَ لَكِـــنْ لَسْـــتُ أَسْـــمَعُهُ
إِنَّ الْمُحِـــــبَّ عَـــــنِ العُـــــذَّالِ فِي صَـــــمَمِ

لَّما لم يفد معه الإستعطاف، فلم يرجع عن اللوم، اعترف له بأنه أخلص له في النصح؛ ليستريح منه، فقال: "**مَحَضْتَنِي النُّصْحَ**" أي: أخلصتَ لي النصح، وقوله: "**لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ**" استدراك على على قوله: "**مَحَضْتَنِي النُّصْحَ**"، والمنفي إنما هو سماع القبول وإلا فقد يسمعه، وقوله: "**إِنَّ الْمُحِبَّ**" تعليل لقوله: "**لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ**"، وقوله: "**عَنِ العُذَّالِ**" أي: عن نصحهم، و" **الْعُذَّالِ**": جمع عاذل، وهو اللائم في الحب، و"**الصَمَم**": ضعف في قوة السمع، فوق الوقر[1] ودون الطرش ودون الصنج، ولذلك قال الثعالبي[2]: "يقال: في أذنه وقر، فإن زاد؛ فهو صممٌ، فإن زاد؛ فهو طرشٌ، فإن زاد حتى لا يسمع الرعد؛ فهو صنجٌ"[3].

13. إِنِّـــي اتَّهمـــتُ نَصِـــيحَ الشَّـــيْبِ فِي عَـــذَلِي
والشَّـــــيْبُ أَبْعَـــــدُ فِي نُصْـــــحٍ عـــــن الـــــتُّهَمِ

لَّما اعترف له على طريق التسليم الجدلي بأنه محضه النصح، فلم يرجع عن اللوم؛ اتهمه في عذله، فكأن السائل قال له: كيف تتهمني في العذل؟ فقال له: "**إِنِّي اتَّهمتُ**" أي: فإذا اتهمت نصيح الشيب في عذله عليَّ في الهوى، والحال: أن الشيب أبعد عن التهم في النصح، فكيف بالعاذل الذي ليس أبعد عن التهم في النصح، بل من شأنه أن يتهم فيه؟! وقوله: "**نَصِيحَ الشَّيْبِ**" أي شيبًا ناصحًا، وإنما كان الشيب ناصحًا؛ لأنه يدل على قرب الأجل، وحصول الموت الموجب لترك دواعي الشباب واشتغال العبد بما يقربه لمولاه زلفى[4]، وقوله: "**فِي عَذَلِي**" متعلق بـــ "**اتَّهمتُ**"، أي: اتَّهمته في لومه عليَّ في الهوى ودواعي الشباب، وقوله: "**والشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحٍ عن التُّهَمِ**" أي: والحال أن الشيب أبعد عن التهم في النصح.

(1) الوقر: وَقَرَتَ أُذُنُه: ثَقُلَ سَمْعُها، أو صُمَّت فلا تسمع.
(2) هو عبد الملك بن محمَّد، أبو منصور: من أئمة اللغة والأدب، من أهل نيسبور، توفي سنة 429 هجرية.
(3) فقه اللغة للثعالبي، ص: 109.
(4) زلفى: المترلة، والدرجة، والقربة.

[التحذير من هوى النفس]

14. فَـــإِنَّ أَمَّـــارَتِي بالسُّـــوءِ مَـــا اتَّعَظَـــتْ
مِـــنْ جَهْلِهـــا بنـــذِيرِ الشَّـــيْبِ والهَـــرَمِ

هذا البيت تعليلٌ للبيت قبله، و"**الأمارة**" من أنواع النفس، وهي التي تأمر بالمخالفة، فلا يلوح لها طمع إلا فعلته، ولا برزت لها شهوة إلا قضتها، ومنها **اللوامة**: وهي التي ترجع باللوم على صاحبها كثيرًا عند الوقوع في المعصية لسابقة القضاء، ومنها **المطمئنة**: وهي التي اطمأنت للإيمان وللتصديق بوعد الله، فهي دائمًا موفقة للطاعة، مصدقة بلقاء الله تعالى.

وقوله: "**بالسوء**" متعلق بأمارتي، و**السوء**: القبيح، وقوله: "**ما اتعظت**" خبر إنَّ، أي: ما قبلت الوعظ، وقوله: "**من جهلها**" أي: من أجل جهلها، و"**نذير**": إما بمعنى الإنذار فيكون مصدرًا، أو بمعنى المنذر، فيكون اسم فاعل.

15. ولا أَعَـــدَّتْ مـــن الفِعْـــلِ الجَمِيـــلِ قِـــرَى
ضَـــيْفٍ أَلَـــمَّ برَأْسِـــي غَيْـــرَ مُحْتَشِـــمِ

قوله: "**ولا أعدت**" عطفٌ على قوله: "**ما اتعظت**"؛ لأن الاتعاظ يكون بالاتيان بالاعمال الحسنة، والاجتناب عن الأعمال القبيحة، و"**الإعداد**": التهيئة، وقوله: "**من الفعل الجميل**" أي: من الأعمال الصالحة، و"**قرى الضيف**" - بكسر القاف-: إكرامه؛ لأنه شبَّه الشيب بالضيف في طُروِّه على الشخص بعد أن لم يكن، وقوله: "**ألَمَّ**" - بتشديد الميم- بمعنى نزل، وقوله: "**برأسي**" أي: في رأسي، فالباء بمعنى: في، وقوله: "**غير محتشم**" أي: غير مستحيى، فالشيب إذا نزل لا يرتحل إلا بالموت.

16. لَـــوْ كُنْـــتُ أَعْلَـــمُ أَنِّـــي مَـــا أُوَقِّـــرُهُ
كَتَمْـــتُ سِـــرًّا بَـــدَا لِـــي مِنْـــهُ بـــالكَتَمِ

قوله: "**لو كنت أعلم**": العلم والمعرفة بمعنى واحد، وقوله: "**أني ما أوقره**" أي: أني ما أعظمه بفعل الجميل وترك القبيح، وقوله: "**كتمت سرًا**" أي أخفيته، والمراد بالسرّ: الشيب الذي يظهر أولاً، وقوله: "**بدا لي**" أي: ظهر لي، وقوله: "**منه**" أي: من الشيب، و"**الكتم**"- بفتح التاء-: نبت يخلط بالحناء، ويخضب به الشعر، فيبقى لونه، كما في (القاموس)، وفي هذا البيت تنبيه على توقير الشيب، وقد سماه الله تعالى وقارًا، فقد روي: "أن أول من رأى الشيب إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة

والسلام، فقال: ما هذا يا رب؟، فقال الله تعالى: وقار يا إبراهيم، فقال: يارب زدني وقارًا، فأصبح وقد عمَّه الشيب"، وفي الحديث القدسي: "الشيب نوري"[1].

17. مَـــنْ لِـــي بـــرَدِّ جِمَـــاحٍ مِـــنْ غَوَايَتِهَـــا
كَمَـــا يُـــرَدُّ جِمَـــاحُ الْخَيْـــلِ بـــاللُّجُمِ

قوله: "**من لي**" أي: من يتكفل لي؟، وقوله: "**برد جماح من غوايتها**" أي: بصرف قوة، وغلبة ناشئة من ضلالتها، "**فالجماح**" بمعنى: القوة والغلبة، والمراد "**برده**": صرفه، و"**غوايتها**" - بفتح العين المعجمة- بمعنى: ضلالتها، أي: جماح ناشئ من غوايتها، وقوله: "**كما يرد جماح الخليل باللجم**" أي: ردًا مثل ردِّ جماح الخيل باللجم في القوة والعنف.

18. فَـــلا تَـــرُمْ بِالْمَعَاصِـــي كَسْـــرَ شَـــهْوَتِها
إِنَّ الطَّعَـــامَ يُقَـــوِّي شَـــهْوَةَ الـــنَّهِمِ

قوله: "**فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها**" أي: لا ترجو، ولا تتوقع بتمكينها مما تتمناه من المعاصي دفع شهوتها؛ لأنها إذا ألفت المعاصي قويت شهوتها، وقد استدل على ذلك بقوله: "**إن الطعان يقوي شهوة النهم**" أي: إن الطعام يزيد في شهوة النهم- بتشديد النون، وكسر الهاء- الذي هو شديد الشهوة إلى الطعام، فتمكينه منه يزيد في شهوته إليها، وكذلك النفس تمكينها من المعاصي يزيد في شهوتها إليها.

19. وَالـــنَّفْسُ كَالطِّفْـــلِ إِنْ تُهمِلْـــهُ شَـــبَّ عَلَـــى
حُـــبِّ الرَّضَـــاعِ وإِنْ تَفْطِمْـــهُ يَـــنْفَطِمِ

قوله: "**والنفس كالطفل**": شبَّه النفس بالطفل في عدم الملل، فكما أن الطفل إن تركته على ما ألفه من الرضاع دام على حُبِّه، وإن منعته عنه امتنع، كما ذكره بقوله: "**إن تهمله**"، كذلك النفس إن تركتها على ما ألفته من المعاصي دامت على حُبِّه، وإن منعتها عنه امتنعت، وقوله: "**شبَّ على حُبِّ الرضاع**" أي: كبر على حُبِّ الرضاع، وقوله: "**وإن تفطمه ينفطم**" أي: وإن تفصله وتمنعه عن الرضاع انفصل وامتنع عنه، قال في (المصباح): "فطمت المرأة الرضيع فطمًا من باب ضرب: فصلته عن الرضاع، فهي فاطمة، والرضيع فطيم"ا.هـ.

(1) رواه العجلوني في (كشف الخفاء) ، والمناوي في (فيض القدير)، وأبو طاهر السلفي في (معجم السفر) من حديث أنس بلفظ: "الشيب نور".

20. فَاصْـــرِفْ هَوَاهَـــا وَحَـــاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَـــهُ
إِنَّ الْهَـــوَى مَـــا تَـــوَلَّى يُصْـــمِ أَوْ يَصِـــمِ

قوله: **"فاصرف هواها"** أي: إذا علمت ذلك فاصرف هواها، **"فالفاء"**: فاء الفصيحه، **"اصرف هواها"** بمعنى: عدم اتباعه، فهي لا تخلو عن هوى أبدًا، لكن الشخص لا يتبعه، وقوله: **"وحاذر أن توليه"** أي: واحذر أن تعطي هواها الولاية، والإمارة عليك؛ لأنه داعٍ إلى ضلال، وقوله: **"ما تولى"** أي: ما صار واليًا، و**"ما"**: شرطية، وقوله: **"أو يصم"** - بفتح الياء وكسر الصاد- من وصمه إذا عابه، فالمعنى: إن الهوى إن ولاه الشخص يقتله، أو يعيبه، ولَمَّا كان الهوى سببًا للهلاك أجمع على ذمِّه العارفون، ووردت بذمه الآيات والأحاديث؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال قبائحها، وقال ابن عباس "الهوى إله يعبد من دون الله"، وتلا قوله تعالى: **[** أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ **]**(سورة الجاثية: من الآية 23)[1].

21. وَرَاعِهَـــا وَهْـــيَ فِـــي الْأَعْمَـــالِ سَـــائِمَةٌ
وَإِنْ هِـــيَ اسْـــتَحْلَتِ المَرعَـــى فَـــلا تُسِـــمِ

قوله: **"وراعها وهي في الأعمال سائمة"** أي: لاحظها، والحال: أنها في الأعمال الصالحة سائمة كالبهيمة السائمة في الكلأ، **"الأعمال"**: الأعمال الصالحة، **"سائمة"**: بمعنى آخذة ومشتغلة، **"وإن هي استحلت المرعى فلا تسم"**- بضم التاء، وكسر السين- أي: وإن هي وجدت المرعى حلوًا فلا تبقها فيه؛ لأنها لا تميل إلى الطاعة لذاتها بل لغرض فيها، فتنقلب الطاعة معصية، بل قد تكون أعظم مفسدة من المعصية، كما يشير لذلك قول صاحب (الحِكَم)[2]: "رُبَّ معصيةٍ أورثت ذلاً وانكسارًا، خيرٌ من طاعةٍ أورثت عزًّا واستكبارًا".

22. كَـــمْ حَسَّـــنَتْ لَـــذَّةً لِلْمَـــرْءِ قَاتِلَـــةً
مِـــنْ حَيْـــثُ لَـــمْ يَـــدْرِ أَنَّ السُّـــمَّ فِـــي الدَّسَـــمِ

قوله: **"كم حسنت لذة للمرء قاتلة"** هذا البيت استشهاد على البيت الذي قبله، **"كم"**: خبرية بمعنى كثيرًا، والتقدير: كم مرة أي: كثيرًا من المرات، وقوله: **"حسنت لذة للمرء قاتلة"** أي: أعدت لذة قاتلة حسنة للشخص رجلاً كان أو امرأة، وقد بيَّن وجه كون اللذة قاتلة بقوله: **"من حيث لم يدر أن السُّمَّ في الدسم"**، **"الدسم"**: هو الدهن، وخص **"السم"** بالذكر؛ لأنه

(1) تفسير القرطبي.

(2) الحكم العطائية، لصاحبها الأستاذ الامام، قطب العارفين أبو الفضل سيدي أحمد بن محمَّد بن عطاء الله السكندري الأشعري المالكي الشاذلي رضي الله عنه وأرضاه.

قاتل، وخص "**الدسم**" بالذكر؛ لأنه يعلو الأشياء، فيستر ما تحته، والمراد "**بالسم**" هنا: حظُّ النفس، والمراد "**بالدسم**" هنا: الطاعة.

والحاصل: أن النفس لها حظ في الطاعة كما أن لها حظًا في المعصية، بل حظها في الطاعة أشدُّ؛ لأن حظها في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعة باطن خفيٌّ.

23. وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

قوله: "**واخش الدسائس من جوع ومن شبع**" أي: اخش المكائد التي تخفيها النفس في الجوع والشبع، فالدسائس من الجوع كالحدة[1] وسوء الخلق، والدسائس من الشبع كالكسل عن العبادة، "**فرب مخمصة شر من التخم**": إذ رُبَّ مجاعة مفرطة شرٌّ من كثرة الأكل، فالعبادة قد لا تحصل بالكلية مع الجوع المفرط، وتحصل مع كثرة الأكل وإن كان فيها كسل، و"**رب**" هنا للتقليل، و"**المخمصة**": المجاعة، و"**التخم**" -بضم التاء، وفتح الخاء-: جمع تخمة، وهي فساد المعدة بالطعام.

24. وَاسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدِ امْتَلأَتْ
مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ

قوله: "**واستفرغ الدمع من عيني**" أي: أفرغ الدمع بالبكاء، و"**امتلاء العين من المحارم**": كناية -عند الفقهاء- عن كثرة النظر بها لما لا يجوز شرعًا، وعند الصوفية وأهل الحب: رؤية الأغيار بها، وكان عليه الصلاة والسلام كثير البكاء، وقوله: "**والزم حمية الندم**" أي: والزم حماية الندم لك عن المحارم، والمراد من "**الندم**": التوبة المستكملة للشروط الشرعية، وإنما عبَّر بالندم؛ لأنه العمدة في التوبة، ولذلك ورد: "الندم توبة"[2].

25. وَخَالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا
وَإِنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ

قوله: "**وخالف النفس والشيطان واعصهما**" أي: إذا أمرتك نفسك والشيطان بشيء أو نهتك نفسك والشيطان عن شيء فخالفهما؛ لأنهما عدواك، وإنما قدَّم المصنِّف النفس على الشيطان؛ لأنها أضر منه، وفتنتها أعظم من فتنته، وقوله: "**وإن**

(1) الحدة: ما يعتري الإنسان من نزقٍ أو غضبٍ.

(2) رواه ابن حبان في (صحيحه)، وابن ماجه في (سننه)، والحاكم في (المستدرك)، وأحمد في (المسند)، والبزار في (مسنده)، وذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد)، والمنذري في (الترغيب والترهيب)، والبخاري في (التاريخ الكبير)، والمزي في (تهذيب الكمال)، والطبراني في(المعجم الأوسط)، وغيرهم.

هما محضاك النصح فاتهم" أي: وإن هما أخلصا لك النصح فيما أبدياه لك كأن يقولا لك: تمتع بهذه الشهوة لكي تتوجه إلى الطاعة فارغ القلب، أو يقولا لك: أرفق على نفسك في العبادة لتدوم عليها، أو أكثر من العبادة لتفوز بالدرجات العُلا، أو نحو ذلك، فاتهمهما بأن تنسبهما إلى الخيانة وعدم الإخلاص.

26. وَلا تُطِـــعْ مِنْهُمَـــا خَصْـــمًا ولا حَكَمًـــا
فَأَنْـــتَ تَعْـــرِفُ كَيْـــدَ الخَصْـــمِ والْحَكَـــمِ

قوله: "**ولا تطع منهما خصمًا ولا حكمًا**"، هذا البيت تأكيد للبيت قبله، ومعناه: أنه إذا تخاصم العقل مع النفس وجعلا الشيطان حكمًا، أو تخاصم العقل مع الشيطان وجعلا النفس حكمًا فلا تطع واحدًا من النفس والشيطان، لا الخصم ولا الحكم، والخصم هنا قد يكون النفس والحكم الشيطان، وبالعكس، وقوله: "**فأنت تعرف كيد الخصم والحكم**" أي: لأنك تعرف كيد الخصم والحكم من الناس، وكيد النفس والشيطان أشد.

27. أَسْـــتَغْفِرُ اللهَ مِـــنْ قَـــوْلٍ بِـــلا عَمَـــلٍ
لَقَـــدْ نَسَـــبْتُ بِـــهِ نَسْـــلاً لِـــذِي عُقُـــمِ

قوله: "**أستغفر الله**"، لَّما كان المصنف مُعترفًا بأنه غير عامل بقوله، وقد قال تعالى:] كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ [(سورة الصف: الآية 3)، استغفر من ذلك، وقوله: "**من قول بلا عملٍ**" أي: من قول مصحوب بعدم العمل، وقوله: "**لقد نسبت به نسلاً لذي عقم**" أي: لقد نسبت بهذا القول نسلاً - وهو الذرية- لشخص صاحب عقم- بضم القاف-، وهو الذي لا يولد لمثله.

28. أَمَرْتُـــكَ الخَيْـــرَ لَكِـــنْ مَـــا ائْتَمَـــرْتُ بِـــهِ
وَمَـــا اسْـــتَقَمْتُ فَمَـــا قَـــوْلِي لَـــكَ اسْـــتَقِمِ

قوله: "**أمرتك الخير**"، مراده بالأمر: ما يشمل النهي، و"**الخير**": ما له عاقبة محمودة، وقوله: "**لكن ما ائتمرت به**" أي: لكن وما عملت به، وقوله: "**وما استقمت**" أي: بفعل المأمورات وترك المنهيات، وقوله: "**فما قولي لك استقم**" أي: فما ثمرة قولي لك استقم حيث لم أستقم؟، والاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا ثمرة له ولا فائدة له.

29. وَلا تَـــــزَوَّدْتُ قَبْـــــلَ الْمَـــــوْتِ نَافِلَـــــةً

وَلَـــــمْ أُصَـــــلِّ سِـــــوَى فَـــــرْضٍ وَلَـــــمْ أَصُـــــمِ

وقوله: **"ولا تزودت قبل الموت"**، المراد" **بالتزود**" هنا: العمل، وإنما عبر بالتزود نظرًا لكون الموت سفرًا طويلاً محتويًا على الأهوال والمشاق، والسفر المذكور يناسبه التزود، قال تعالى: **[** وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى **]**(سورة البقرة: من الآية 197)، وقوله: **"نافلة"** أي: مستقلة، وقد اشتهر أن النافلة يجبر بها ما نقص من الفرائض، لكن نقل القرطبي في (التذكرة) عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أن ذلك فيما نقص من الفرائض سهوًا، وأما ما نقص منها عمدًا فلا يجبر بالنافلة وإن كثرت جدًا، وقوله: **"ولم أُصلِّ سوى فرض ولم أصم"**، إنما خصَّ الصلاة والصوم بالذكر لأنهما محضُ عبادة بدنية، وإنما سكت عن الإيمان لأنه لا يتنفل به، ولأن الذي يصلي الفرض ويصوم الفرض إنما هو المؤمن لا الكافر، فلذلك لم يذكر الإيمان لأنه ثابت في قلبه والحمد لله.

[مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم]

30. ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلامَ إِلَى
أَنِ اشْتَكتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

قوله: **ظلمت سُنَّة من أحيا الظلام"**، هذا تخلص للشروع في المقصود، وهو مدحه صلى الله عليه وآله وسلم، **"الظلم"** وضع الشيء في غير محله، و**"السُنَّة"** لغة: الطريقة، وشرعًا: الطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراضٍ ولا وجوب، و**"من"**: واقعة على نبي، وهو نبينا صلى الله عليه وآله وسلم. وقوله: **"أحيا الظلام"** أي: أنار الليل المظلم بالصلاة، وقوله: **"إلى أن اشتكت قدماه الضر من ورم"**: واشتكاء القدمين كناية عن شدَّة الألم الحاصل لهما من كثرة القيام على وجه المبالغة، و**"الورم"**: ازدياد الحجم على غير اقتضاء طبيعي، وقد روى المغيرة **p** أنه صلى الله عليه وآله وسلم قام حتى تورمت قدماه **i** ، فقيل له: أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: **p** أفلا أكون عبدًا شكورًا **i** [1].

31. وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى
تَحْتَ الحِجَارَةِ كَشْحًا مُتْرَفَ الْأَدَمِ

قوله: **"وشد من سغبٍ أحشاءه"**، **"الشد"**: العصْب والربط، و**"السغب"**: الجوع، و**"من"** الداخلة عليه للتعليل، أي: عصب وربط من أجل الجوع، و**"الأحشاء"**: جمع حشى وهو كما في الصحاح: ما انضمت عليه الضلوع، وقيل: القلب وقيل: الأمعاء.

وفائدة هذا الشدِّ انضمام الأحشاء على المعدة، فتخمد[2] الحرارة بعضُ خمود، وقد روى الشدَّ مسلم عن أنسٍ قال: جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومًا **p** فوجدته جالسًا مع أصحابه يحدثهم، وقد عصب بطنه بعصابة **i** ، فقالوا: من الجوع"[3]، وقوله: **"وطوى تحت الحجارة كشحا مترف الأدم"**، **"الطي"**: اللف، و**"الكشح"**: الخاصرة، و**"المترف"**: الناعم من الترف، و**"الأدم"**: الجلد.

---

(1) رواه البخاري، ومسلم من حديث المغيرة بن شعبه.

(2) تخمد: خمدت النار: سكن لهبُها، و لم يُطفأ جَمْرُهَا.

(3) رواه مسلم في (صحيحه).

32. وَرَاوَدَتْـــهُ الجِبَـــالُ الشُّـــمُّ مِـــنْ ذَهَـــبٍ
عَـــنْ نَفْسِـــهِ فَأَرَاهَـــا أَيَّمَّـــا شَـــمَمِ

قوله: **"وراودته الجبال"**، **"المراودة"**: المطالبة، يقال رواده: أي طلب منه أن يكون على مراده، وإسناد المراودة للجبال مجاز: والمقصود جبال مكة كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة، فقد روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: **p** عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ **i** [1]، وقوله: **"الشُّم"**: أي المرتفعة وهي جمع أشم، وقوله: **"عن نفسه"** أي: من أجل نفسه، وقوله: **"فأرها أيما شمم"** أي: فأراها أيما شمم، أي: شممًا عظيمًا؛ أي: إعراضًا شديدًا، علمًا منه بأن ما عند الله خيرٌ وأبقى.

33. وَأَكَّـــدَتْ زُهْـــدَهُ فِيهَـــا ضَـــرُورَتُهُ
إِنَّ الضَّـــرُورَةَ لا تَعْـــدُو عَلَـــى الْعِصَـــمِ

قوله: **"وأكد زهده فيها ضرورته"**، **"التأكيد"**: التقوية، و**"الزهد"**: ترك الشيء وقلة الرغبة فيه، والضمير المجرور بفي راجعٌ للجبال التي تكون من ذهب، و**"الضرورة"**: شدة الحاجة، وقوله: **"إن الضرورة"** مستأنف استئنافًا بيانيًا أو تعليل، فكأنه قيل له: كيف تؤكد ضرورته زهده فيها؟، مع أن الضرورة تقتضي الإقبال عليها وعدم الإعراض عنها؟، فقال: **"إن الضرورة لا تعدو على العصم"**، وقوله: **"لا تعدو على العصم"** أي: لا تتعدى عليها ، يقال عدا عليه أي تعدى عليه، وفي كلامه حذف مضاف، أي على ذوي العصم أي: المعصومين، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

34. وَكَيْـــف تَـــدْعُو إِلَـــى الـــدُّنْيَا ضَـــرُورَةُ مَـــنْ
لَـــوْلاهُ لَـــمْ تَخْـــرُجِ الـــدُّنْيَا مِـــنَ الْعَـــدَمِ

قوله: **"وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة مَن"**، إستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا تدعوا ... إلخ ، و**"الدعاء"**: الطلب والميل، وقوله: **"إلى الدنيا"** متعلق بتدعو، و**"الدنيا"** صفة في الأصل ثم نقلت إلى الإسمية فجعلت إسمًا لهذه الدار التي نحن فيها، وقوله: **"ضرورة مَن"** أي: ضرورة نبي، وقوله: **"لولاه لم تخرج الدنيا من العدم"** أي: لولا وجوده صلى الله عليه وآله وسلم لاستمرت الدنيا على عدمها، والأصل في ذلك ما رواه الحاكم والبيهقي من قول الله تعالى لآدم لما سأله بحقِّ محمَّد أن يغفر له ما اقترفه من صورة الخطيئة، وكان رأى على قوام العرش مكتوبًا: لا إله إلا الله محمَّد رسول الله: "سَأَلْتَنِي بِحَقِّه أَنْ أَغْفِرَ

(1) رواه أحمد في (المسند)، والترمذي في (الجامع)، والبيهقي في (شعب الإيمان)، والروياني في (المسند)، والطبراني في (المعجم الكبير)، والأصبهاني في (الحلية)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى)، وغيرهم من حديث أبي أمامة.

لَكَ، وَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ، وَلَوْلاهُ مَا خَلَقْتُكَ"(1)، فوجود آدم عليه السلام متوقف على وجوده صلى الله عليه وآله وسلم، وآدم أبو البشر، قال تعالى: [خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا](سورة البقرة: الآية 29)، وإذا كانت هذه الأمور خلقت لأجل البشر، وأبو البشر إنما خُلق لأجله صلى الله عليه وآله وسلم، كانت الدنيا إنما خُلقت لأجله، فيكون صلى الله عليه وآله وسلم هو السبب في وجود كل شيء.

35. مُحَمَّـــــدٌ سَـــــيِّدُ الْكَــــوْنَيْنِ وَالثَّقلَـــــــيْنِ وَالْفَـــرِيقَيْنِ مِـــنْ عُـــرْبٍ وَمِـــنْ عَجَـــمِ

قوله: "**محمَّد**" أي: الممدوح محمَّد، وقوله: "**سيد الكونين**" أي: أشرف أهل الكونين، والمراد بالكونين: الدنيا والآخرة، وقوله: "**والثقلين**" أي: الإنس والجن، وإنما سميا ثقلين لإثقالهم الأرض، أو لثقلهما بالذنوب، وقوله: "**من عرب ومن عجم**": بيانٌ للفريقين، والعُرب- بضم العين، وسكون الراء-: لغة في العَرب - بفتحها-، والمراد بالعجم: جميع غير العرب.

36. نَبِيُّنَـــا الآمِــــرُ النَّــــاهِي فَــــلا أَحَـــــدٌ أَبَـــــرَّ فِــــي قَــــولِ "لا" مِنْـــــهُ وَلا "نَعَـــــمِ"

قوله: "**نبينا**"، الإضافة في نبينا لتشريف المضاف إليه صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**الآمر الناهي**" أي: عن الله تعالى، وقوله: "**فلا أحد أبر من قول لا منه ولا نعم** " أي: إذا أمر ونهى، فلا أحد أصدق منه في الأمر والنهي.

37. هُـــوَ الحَبِيـــبُ الَّـــذِي تُرْجَـــى شَـــفَاعَتُهُ لِكُـــلِّ هَـــوْلٍ مِـــنَ الأهَـــوالِ مُقْـــتَحَمِ

قوله: "**هو**" الضمير راجع لمحمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، أو لنبينا، "**الحبيب**": أي لله أو لأمته؛ لأنه أعظم مُحبٍّ لله وأفضل محبوب له، وهو أيضًا مُحبٌّ لأمته ومحبوب لها، وقوله: "**الذي ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم**" أي: الذي تتوقع شفاعته، وهي طلب الخير للغير عند كل هول، و"**الهول**" هو: الأمر المخوف، "**مقتحم**" الاقتحام: هو الوقوع في الشيء كرهًا، وإنما عبَّر بالرجاء مع أن شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم مقطوعٌ بها اشارة أنه لا ينبغي للشخص أن ينهمك في المعاصي ويتكل على الشفاعة.

وله صلى الله عليه وآله وسلم شفاعاتٌ:

---

(1) رواه الحاكم في (المستدرك) وصحح إسناده، والبيهقي في (دلائل النبوة).

منها: شفاعته في فصل القضاء حين يتمنى الناس الإنصراف من المحشر، ولو للنار لشدة الهول، وهذه هي الشفاعة العظمى، وتسمى: المقام المحمود؛ لأنه يحمده عليها الأولون والآخرون، وهي مختصَّة به صلى الله عليه وآله وسلم.

ومنها: شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم في دخول جماعة الجنَّة بغير حساب.

ومنها: شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم في جماعة استحقوا النار، لا يدخلوها، بل يدخلون الجنَّة.

ومنها: شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم في جماعة دخلوا النار أن يخرجوا منها، وهي غير مختصَّة به صلى الله عليه وآله وسلم، بل تكون لغيره أيضًا.

ومنها: شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم في رفع درجات أناسٍ في الجنَّة.

ومنها: شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم في تخفيف العذاب عن بعض الكفار.

38. دَعَــــــا إلى اللهِ فَالمُسْتَمْسِــــــــكُونَ بِــــــهِ
مُسْتَمْسِــــــــكُونَ بِحَبْــــــلٍ غَيْـــــرِ مُنْفَصِــــــمِ

قوله: "**دعا إلى الله**".أي: دعا إلى دين الله وهو الإسلام، وقوله: "**فالمستمسكون به مستمسكون بحبل غير منفصم**"، المراد من "**الحبل**": السبب كما هو أحد إطلاقيه، و"**الفصم**" بالفاء: القطع من غير إنابة.

39. فَــاقَ النَّبِــيِّينَ فَــيْ خَلْــقٍ وفِــي خُلُــقٍ
وَلَــــمْ يُــــدَانُوهُ فِــــي عِلْــمٍ وَلا كَــــرَمِ

قوله: "**فاق النبيين**" أي: زاد صلى الله عليه وآله وسلم على النبيين، "**في خلق**" - بفتح الخاء، وسكون اللام-: وهو الصورة والشكل، "**وفي خُلق**"- بضمها-: وهو ما طبع عليه الإنسان من الخصال الحميدة، كالعلم، والحياء، والجود، والشفقة، والحلم، والعدل، والعفة، وأمثال ذلك، فقد اجتمع فيه صلى الله عليه وآله وسلم ما تفرَّق في غيره من تلك الخصال، وقوله: "**في علم ولا كرم**" أي: ولا غيرها، وإنما اقتصر المصنف عليهما لأن العلم رأس الفضائل، والكرم رأس الفواضل.

40. وَكُلُّهُـــــمُ مِــــنْ رِسُــــولِ اللهِ مُلْــــتَمِسٌ
غَرْفًــا مِــنَ البحْــرِ أوْ رَشْــفاً مِــنَ الــدِّيَمِ

قوله: "**رسول الله**": هو سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد من قوله: "**ملتمس**": آخذ، وقوله: "**غرفًا من البحر أو رشفًا من الديم**" أي: حال كون بعض الملتمسين مغترفًا من البحر وبعضهم مرتشفًا من الديم، و"**الغرف**": مصدر

غرف بمعنى أخذ، و"**الرشف**": المص، و"**الديم**" جمع ديمة، وهي المطر الدائم يومًا وليلة من غير رعد، والمراد من البحر والديم هنا: علمه وحلمه صلى الله عليه وآله وسلم.

41. وَوَاقِفُـــونَ لَدِيـــهِ عِنْـــدَ حَـــدِهِمُ
مِـــنْ نُقْطَـــةِ الْعَلَـــمِ أَوْ مِـــنْ شَـــكْلَةِ الحِكَـــمِ

قوله: "**وواقفون لديه عند حدهم**"، معنى كونهم واقفين لديه عند حدهم: أنهم ثابتون عنده صلى الله عليه وآله وسلم في العلم والحكم عند الحدِّ الذي حُدَّ لهم من ذلك، فلا يتجاوزونه، وقوله: "**من نقطة العلم أو من شكلة الحكم**": بيان لحدهم، أي: الذي هو كنقطة من العلم أو كشكلة من الحكم، والمراد من "**العلم والحكم**": علم الرسول وحكمه كما قاله بعض الشارحين، وقيل: المراد بهما: علم الله وحكمه، وإنما خصَّ النقطة بالعلم، والشَكلة بالحِكَم؛ لأن النقطة تميز الحروف المشتبهة الصور، والعلم خاصته التمييز.

42. فَهْـــوَ الـــذِي تَـــمَ مَعْنَـــاهُ وصُـــوْرَتُهُ
ثُـــمّ اصْـــطَفَاهُ حَبِيْبًـــا بَـــارِئُ النَّسَـــمِ

قوله: "**فهو الذي تم معناه**"، "**معناه**": أي كمالاته الباطنية من الخلق، والمراد "**بصورته**": صفاته الظاهرية، وقوله: "**ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم**" أي: ثم اختاره حبيبًا خالق الخلق، و"**النسم**"- بفتح النون المشددة-: جمع نسمة – بفتحات-، وهي الإنسان.

43. مُنَـــزَّهٌ عَـــنْ شَـــرِيْكٍ فِـــي مَحَاسِـــنِهِ
فَجَـــوْهَرُ الحُســـنِ فِيـــهِ غَيْـــرُ مُنْقَسِـــمِ

قوله: "**مُنزَّه عن شريك في محاسنه**" أي: وهو منزه[1]... إلخ، وقوله: "**عن شريك**" أي: عن كل شريك، والمعنى: لا يوجد له شريكٌ، وقوله: "**في محاسنه**" أي: صورةً ومعنى، وقوله: "**فجوهر الحسن فيه غير منقسم**"، المراد من جوهر الحسن: ذاته وحقيقته، وقوله: "**فيه**" أي: الكائن فيه، وقوله: "**غير منقسم**" أي: بينه وبين غيره لاختصاصه به، بخلاف يوسف عليه السلام فإنه أُعطي شطر الحسن.

(1) منزه: مُبرَّأ.

44. دَعْ مَـــا ادَّعَتْـــهُ النَّصَـــارَى فِـــيْ نَبـــيِّهِمُ
وَاحْكُـــمْ بِمَـــا شِـــئْتَ مَـــدْحًا فِيْـــهِ واحْـــتَكِمِ

قوله: "**دع ما ادعته النصارى في نبيهم**"، في هذا البيت إشارة إلى قوله: صلى الله عليه وآله وسلم: **p** لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح، ولكن قولوا عبد الله ورسوله **i** [1]، والمراد بما ادعته النصارى في نبيهم قولهم بأنه إله، و"**النصارى**" هم: قوم عيسى، وقوله: "**واحكم بما شئت مدحًا فيه**" أي: احكم بما شئت مما يدل على شرفه وعلو شأنه وعظم جاهه من جهة المدح فيه صلى الله عليه وآله وسلم ذاتًا وصفاتًا، وقوله: "**واحتكم**" أي: راع الحكمة في مدحك له صلى الله عليه وآله وسلم بما تأتي بالمدح اللائق بجنابه الشريف.

45. وانْسُـــبْ إِلَـــى ذَاتِـــهِ مَـــا شِـــئْتَ مِـــنْ شَـــرَفٍ
وَانْسُـــبْ إِلَـــى قَـــدْرِهِ مَـــا شَـــئْتَ مِـــنْ عِظَـــمِ

قوله: "**وانسب إلى ذاته**" هذا البيت تفصيلٌ لما أجمله في قوله: "**واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم**"، وقوله: "**ما شئت من شرفٍ**" أي: الذي شئته من صفات الشرف، وقوله: "**وانسب إلى قدره ما شئت من عظم**" أي: وانسب إلى كماله الذي شئته من صفات العِظَم.

46. فـــإِنَّ فَضْـــلَ رَسُـــولِ اللهِ لَـــيْسَ لَـــهُ
حَـــدٌّ فَيُعْـــرِبَ عَنْـــهُ نَـــاطِقٌ بِفَـــمِ

قوله: "**فإنَّ فضل رسول الله**"، هذا البيت تعليل للبيت قبله، فكأنه قال: "لأن فضل رسول الله... إلخ"، وقوله: "**ليس له أحد**" أي: ليس له غاية ومنتهى؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يزل يرتقي في الكمال كل لحظةٍ، وقوله: "**فيعرب عنه ناطقٌ بفم**" أي: فيفصح عن فضله صلى الله عليه وآله وسلم متكلمٌ بلسانٍ، فمعنى "**يُعرِب**": يفصح، ومعنى "**ناطق**": متكلم.

47. لَـــوْ نَاسَـــبَتْ قَـــدْرَهُ آيَاتُـــهُ عِظَمًـــا
اَحْيَـــا اِسْـــمُهُ حِـــينَ يُـــدْعَى دَارِسَ الـــرِّمَمِ

قوله: "**لو ناسبت قدره آياته عظمًا**"، لو ناسبت آياته قدره في العظم لكان من جملة آياته أن يحيى اسمه دارس الرمم حين يدعى به؛ لأن الواقع أن قدره صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من آياته، حتى من القرآن المتلو بخلاف القرآن غير المتلو، وهو

(1) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عباس.

المعنى القائم بذاته تعالى، فإنه أعظم منه؛ لأن القديم أفضل من الحادث، والمراد بـ "**آياته**": أعلام نبوته أي دلائلها كالمعجزات، وقوله: "**أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم**" أي: أحيا الله بسبب اسمه دارس الرمم حين يدعى به، و"**دارس**" بمعنى: مدروس، و"**الرمم**": جمع رمة، وهي الشيء البالي، والمدروسة: التي زيد في بلائها.

48. لَـمْ يَمْتَحِنَّـا بِمَـا تَعْيَـا الْعُقُـولُ بِـهِ
حِرْصًـا عَلَيْنَـا فَلَـمْ نَرْتَـبْ وَلَـمْ نَهِـمِ

قوله: "**لم يمتحنا**" أي: لم يختبرنا بشيء تعجز عنه عقولنا، بل أتى بالحنيفية الواضحة، "**فالإمتحان**": الاختبار، "**والعي**" بالأمر: العجز عنه وعدم الاهتداء لوجهه، "**والعقول**": جمع عقل، وهو قوة يميز بها بين الصالح والفاسد، "**والحرص على الشيء**": شدة الرغبة فيه، و"**الإرتياب**": الشك، و"**الهيام**": التحير.

49. آعْيَـا الْـوَرَى فَهْـمُ مَعْنَـاهُ فَلَـيْسَ يُـرَى
فِـيْ القُـربِ وَالبُعْـدِ فِيـهِ غَيْـرُ مُـنْفَحِمِ

قوله: "**أعيا الورى**"، "**الإعياء**": الإعجاز، و"**الورى**": الخلق، وقوله: "**فهم معناه**" أي: إدراك حقيقته صلى الله عليه وآله وسلم، و"**يرى**" بالبناء للمفعول، وهي: بصرية، و"**في**" بمعنى: عن، و"**المنفحم**": العاجز، وحاصل المعنى أنه أعجز الخلق فهم حقيقته فليس يبصر شخص غير عاجز عنه في القرب والبعد منه صلى الله عليه وآله وسلم.

50. كَالشَّـمسِ تَظْهَـرُ لِلْعَيْنَـيْنِ مِـنْ بُعُـدٍ
صَـغِيرةً وتُكِـلُّ الطَّـرْفَ مِـنْ أَمَـمِ

قوله: "**كالشمس تظهر للعينين من بُعدٍ صغيرة**" أي: هو كالشمس... إلخ، والمقصود تشبيهه صلى الله عليه وآله وسلم بالشمس في أنه لا يحاط بكنهه وحقيقته في حالتي القرب والبعد، وقوله: "**وتكل الطرف**" أي: وتعيى البصر، وتضعفه لقوة شعاع نورها، وقوله: "من **أمم**" أي: في حالة القرب، و"**الأمم**" -بفتح الهمزة-: القرب.

51. وَكَيْـــف يُـــدْرِكُ فِـــي الـــدُّنْيَا حَقِيقَتُـــهُ
قَـــوْمٌ نِيَـــامٌ تَسَـــلَّوْا عَنْـــهُ بِـــالحُلُمِ

قوله: "**وكيف يدرك في الدنايا حقيقته**"، "**وكيف**": للاستفهام الإنكاري، وهو بمعنى النفي، أي لا يدرك... إلخ، واحترز بقوله: "**في الدنيا**" عن الآخرة، فإنهم يدركون فيها حقيقته صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد بحقيقته صلى الله عليه وآله وسلم: قدره ومنزلته، وقوله: "**قوم نيام**" أي: قوم غافلون عن النظر في حقيقته، والمراد بالقوم: جميع الورى، وقوله: "**تسلوا عنه بالحلم**"- بضم اللام- أي: اكتفوا عن النظر في حقيقته تفصيلاً بما يشبه الحلم.

52. فَمَبْلَـــغُ العِلْـــمِ فِيـــهِ أَنَّـــهُ بَشَـــرٌ
وَأَنَّـــهُ خَيْـــرُ خَلْـــقِ اللهِ كُلِّهِـــمِ

أي: ما يبلغه علم الناس في حقِّه صلى الله عليه وآله وسلم أنه بشر، لا إله ولا ملَك، وأنه خير مخلوقات الله كلهم إنسًا، وجنًا، وملكًا، وغيرهم، و"**البشر**": اسم لبني آدم، سموا بذلك لبدو بشرتهم، وهي ظاهر الجلد، و"**خير**": أصله "أخير"، حذفت منه الهمزة لكثرة الاستعمال، و"**الخلق**": بمعنى المخلوقات.

53. وكُـــلُّ آيٍ أتَـــى الرُّسْـــلُ الكِـــرَامُ بِهَـــا
فِإنَّمَـــا اتَّصَـــلَتْ مِـــنْ نُـــورِهِ بِهِـــمِ

قوله: "**وكل آي**": جمع آية بمعنى: المعجزة، و"**الرسل**": جمع رسول، و"**الكرام**": جمع كريم، والمراد "**بنوره**": معجزاته، وسميت نورًا؛ لأنه يُهتدى بها.

54. فإنَّـــهُ شمـــسُ فَضْـــلٍ هُـــم كواكِبُهَـــا
يُظهِـــرْنَ أَنْوارَهَـــا للنـــاسِ في الظُّلَـــمِ

قوله: "**فإنه شمس فضل**" أي: فإنه كالشمس في الفضل، وقوله: "**هم كواكبها**" أي الرسل: كواكب الشمس، أي مثل كواكبها، وكما أن الشمس إذا بدت لم يبق أثر للكواكب فكذلك شريعته صلى الله عليه وآله وسلم لما بدت نسخت غيرها من سائر الشرائع.

55. أكـــرِمْ بِخَلْـــقِ نـــبيٍّ زانَـــهُ خُلُـــقٌ
بالحُســـنِ مُشـــتَمِلٍ بالبِشْـــرِ مُتَّسِـــمِ

قوله: "**أكرم بخلق نبي زانه خلق**" أي: **ما أكرم خلق نبي...** إلخ، وهو الخلق- بفتح الخاء، وسكون اللام-، وقوله: "**زانه خلق**" أي: حسَّنه خلق - بضم الخاء، واللام- بمعنى: زاده حُسنًا، وقوله: "**بالحسن مشتمل بالبشر متسم**" أي: متصف بالحسن، فاشتماله به من اشتمال الموصوف بالصفة، متصف "**بالبِشر**" وهو- بكسر الباء، وسكون السين المعجمة-: بشاشة الوجه، وطلاقته، "**والأنسام**": الاتصاف، ولا يخفى أن قوله: "**بالحسن**" متعلق بمشتمل وهو بالجرِّ على أنه صفة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحاصل المعنى: ما أحسن صورة نبي حسنه خلق، متصف بالحسن، متصف بالبشاشة وطلاقة الوجه.

56. كـــالزَّهرِ في تَـــرَفٍ والبـــدرِ في شَـــرَفٍ
والبَحـــرِ في كَـــرَمٍ والـــدَّهرِ في هِمَـــمِ

قوله: "**كالزهر في ترفٍ... إلخ**": صفة رابعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، "**الزهر**": نور النبات- بفتح النون-، و"**الطرف**": - بفتح التاء، والراء-: النعومة، و"**البدر**": هو القمر ليلة كماله، وهي ليلة أربعة عشر، و"**الشرف**"- بفتح الشين، والراء-: العلو، وكرم البحر مذكور في قوله تعالى: [وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا](سورة النحل: الآية 14)، و"**الدهر**": الزمن، و"**الهمم**": جمع همَّة، وهي العزم على الشيء والإرادة له.

57. كَأنَّـــهُ وهْـــوَ فَـــرْدٌ مِـــن جلالَتِـــهِ
في عَسْـــكَرٍ حـــينَ تلقـــاهُ وفي حَشَـــمِ

قوله: "**كأنه وهو فرد ...**إلخ"، صفة خامسة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتقدير البيت: كأنه حين تلقاه وهو فرد مثل حاله وهو محاط بجيشه وحشمه، وذلك من مهابته، "**جلالته**": الجلال: العظمة، و"**العسكر**": الجيش، و"**الحشم**": - بفتح الحاء، والسين المعجمة-: الخدم.

58. كأنَّمَـــا اللؤلُـــؤُ المَكنُـــونُ في صَـــدَفٍ
مِـــن مَعْـــدِنَيْ مَنْطِـــقٍ منـــه ومبتَسَـــمِ

قوله: "**كأنما اللؤلؤ المكنون في صدفٍ...** إلخ"، صفة سادسة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، شبَّه اللؤلؤ المكنون في صدفه بكلامه وثغره صلى الله عليه وآله وسلم اللذين يبرزان من معدن منطقه ومبتسمه، و"**اللؤلؤ**": هو الدُرُّ المسمى

بالجوهر، و"**المكنون**": المصون، و"**الصدف**": المحار الذي يتولد فيه، وهو وعاء له يحفظه حتى ينشق عنه، و"**المنطق**": محل النطق، و"**المبتسم**" - بفتح السين-: محل الابتسام.

59. لا طِيــبَ يَعــدِلُ تُرْبًـا ضَــمَّ أعظمَــهُ
طــوبى لِمُنتَشِــقٍ منــه وملتَــثِمِ

قوله: "**لا طيب يعدل...** إلخ"، لمَّا مدحه صلى الله عليه وآله وسلم بما اتَّصف به من المحاسن قبل مفارقته الدنيا، مدحه بما اتَّصف به من المحاسن بعدها، فقال: "**لا طيب...** إلخ"، و"**الطيب**": ما يُتطيب به من مسك ونحوه، و"**الترب**"- بسكون الراء-: لغة في التراب، و"**الضَّمُّ**": الجمع، و"**الأعظم**": جمع عظم، و"**طوبى**": إما مصدر بمعنى تطيُّب أو اسم لشجرة بالجنَّة يسير الراكب في ظلها مائة عام ولا يقطعها، وحاصل المعنى: لا طيب يساوي التراب الذي جمع الجسد الشريف، وهو تراب قبره صلى الله عليه وآله وسلم، ولمَّا كان الطيب يستعمل على وجهين: تارة يستعمل بالشم، وتارة يستعمل بالتضمخ، أشار للأول بقوله: "**منتشق**"، وللثاني بقوله: "**ملتثم**"، والمراد" **بالملتثم**" هنا: المغفِّر موضع اللثام، ومعلومٌ أن طيب التراب المذكور إنما سرى له من طيبه صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو أعلى أنواع الطيب، ولذلك قال أنس: "مَا شَمَمْتُ عَنْبَرًا قَطُّ، وَلا مِسْكًا، وَلا شَيْئًا أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وآله وسلم، وَلا مَسِسْتُ شَيْئًا قَطُّ دِيبَاجًا، وَلا حَرِيرًا، أَلْيَنَ مَسًّا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وآله وسلم"[1].

وقد قال عليه الصلاة والسلام: p القَبْرُ أَوَّلُ مَنْزِلِ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ"[2]، فإما رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ i [3]، ولا شك أن قبره صلى الله عليه وآله وسلم روضة من رياض الجنة، بل أفضلها، وقد قال صلى الله عليه آله وسلم أيضًا: p مَا بَيْنَ قَبْرِي ومِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ i [4].

60. أبــانَ مولِــدُهُ عــن طِيــبِ عُنْصُــرِهِ
يــا طِيــبَ مُفْتَــتَحٍ مِنــه ومُختَــتَمِ

قوله: "**أبان مولده...** إلخ"، "**الإبانه**": الكشف والإظهار، "**مولده**": يصلح لأن يراد به الولادة أو زمانها أو مكانها، و"**الطيب**": الخلوص عما لا ينبغي في النسب، و"**العنصر**"- بضم العين المهملة، وسكون النون، وضم الصاد – هو: الأصل،

(1) أخرجه مسلم في (الصحيح)، وأحمد في (المسند)، وابن حبان في (الصحيح)، والبيهقي في (شعب الإيمان)، وعياض في (الشفا)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى)، وغيرهم.

(2) رواه أحمد في (المسند)، والترمذي في (الجامع)، وابن ماجه في (السنن) من حديث عثمان بن عفان.

(3) رواه الطبراني في (المعجم الأوسط)، والهيثمي في (مجمع الزوائد) من حديث أبي هريرة.

(4) رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن زيد المازني.

والمراد به: آباؤه الذين تناسل هو منهم صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد "**بالمفتتح**" - بفتح التاءين-: من فوق آدم عليه السلام، و"**بالمختتم**" كذلك: سيدنا عبد الله، خلافًا لما قاله بعض الشارحين من أن المراد بالمفتتح هاشم، وبالمختتم النبيُّ صلى الله عليه آله وسلم، ومن آيات مولده صلى الله عليه آله وسلم ما ذكروه عن أمه أنها قالت: "لَقَدْ أَخَذَنِي الطَّلْقُ، وَإِنِّي لَوَحِيْدَةٌ فِي الْمَنْزِلِ، وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ فِي طَوَافِهِ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ، فَسَمِعْتُ وَجْبَةً - أي: سقطة- هَالَتْنِي، وَرَأَيْتُ كَأَنَّ جَنَاحَ طَيْرٍ أَبْيَضَ مَسَحَ فُؤَادِي، فَذَهَبَ رُعْبِي، وَكُلَّ وَجَعٍ أَجِدُهُ، وَكُنْتُ عَطْشَى فَإِذَا بِشَرْبَةٍ بَيْضَاء فَشَرِبْتُهَا، فَأَصَابَنِي نُورٌ عَالٍ ..." إلى آخر الحديث، وقد ذكره بطوله القسطلاني[1].

61. يَـــومٌ تَفَـــرَّسَ فيـــه الفُـــرسُ أنَّهُـــمُ
قَـــد أُنـــذِرُوا بحُلُـــولِ البُـــؤسِ والـــنِّقَمِ

قوله: "**يوم...** إلخ"، أي: هو يوم ...إلخ، بمعنى زمان الولادة فقط، وقوله: "**تفرس فيه الفرس**" أي: ظهر لهم بطريق الفراسة - بكسر الفاء-، وهي: قوة يدرك بها الانسان المعاني اللطيفة بسبب المخايل الظاهرة، "**والفرس**":- بضم الفاء، وسكون الراء-: أهل مملكة فارس، وكانوا مجوسًا يعبدون النار بعد رفع كتابهم حين بدلوه، وإنما سُموا فرسًا لأنه ولد لأبيهم بضعة عشر رجلاً، كل منهم شجاع فارس، فسمو الفرس لذلك، وقوله: "**أنهموا**": بالإشباع، وقوله: "**قد أنذروا**" أي: أعلموا بالبناء للمجهول، وقوله: "**بحلول البؤس والنقم**" أي: بنزول البؤس والنقم بهم، "**والبؤس**": هو الشدة المؤثرة في القلب الهم والحزن، و"**النقم**": جمع نقمة، وهي العقوبة.

62. وبـــاتَ إيـــوَانُ كِســـرَى وَهْـــوَ مُنْصَـــدِعٌ
كَشَـــملِ أصـــحابِ كِســـرَى غـــيرَ مُلتَـــئِمِ

قوله: "**وبات إيوان كسرى...** إلخ"، أي: وبات في ليلة ولادته صلى الله عليه وآله وسلم إيوان كسرى... إلخ، و"**الإيوان**": بناء يبني طولاً غير مسدود الوجه، يعده الملك لجلوسه فيه لتدبير ملكه، و"**كسرى**" - بكسر الكاف-: لقب لكل من ملك الفرس، وقوله: "**وهو منصدع**" أي: والحال أنه منشق شقًا بينًا أشرف به على الهدم، لا لخلل في بنائه بل ليكون آية من آياته صلى الله عليه وآله وسلم، ومع انصداعه سقط منه أربع عشرة شرّافة من شرّافاته، وكانت اثنتين وعشرين. وقوله: "**كشمل أصحاب كسرى**" -بفتح السين المعجمة- أي: حالهم، وقوله: "**غير ملتئم**": خبر بات.

(1) ذكره القسطلاني في (المواهب اللدنية بالمنح المحمَّدية) من حديث عبد الله بن عباس.

63. والنـــارُ خامِـــدَةُ الأنفـــاسِ مِـــن أَسَـــفٍ
عليـــه والنهـــرُ سَـــاهي العَـــيْنِ مِـــن سَـــدَمِ

قوله: "**والنار خامدة الأنفاس**"، المراد "**بالنار**": هي نار الفرس التي كانوا يعبدونها، و لم تخمد قبل تلك الليلة بألف عام، و"**الأنفاس**": جمع نفس- بفتح الفاء-، والمراد به هنا: لهب النار، وقوله: "**من أسف**" أي: من أجل أسف أي: شدة الحزن، "**عليه**": جوَّز بعض الشارحين أن يكون راجعًا إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**والنهر ساهي العين**"، المراد بالنهر: نهر الفرات، والمراد بكونه ساهي العين التي هي مادته عن الجري، ويحتمل أن يكون في الكلام استعارة بالكناية، فيكون قد شبَّه النهر بإنسان ساهي العين، وقوله: "**من سدم**" أي: من أجل سدم، فمن للتعليل، والسدم- بفتح السين والدال-: الحزن.

64. وسَـــاءَ ســـاوَةَ أنْ غاضَـــتْ بُحَيرَتُهَـــا
وَرُدَّ واردُهَـــا بـــالغَيْظِ حـــينَ ظَمِـــي

قوله: "**وساء ساوة...**إلخ" أي: وساء أهل ساوة... الخ، "**وساوة**": اسم لمدينة من مدن الفرس، "**غاضت**": غار ماؤها وذهب بالمرَّة، والباء في قوله: "**بالغيظ**" للملابسة أو المصاحبة، أي: ملابسًا للغيظ أو مصاحبًا له، وحاصل المعنى: وأحزن أهل المدينة المسماة **بساوة** أمران، أحدهما: غيظ مائها، والثاني: ردُّ الذي يردها ليستقي منها بالغيظ حين عطش.

65. كـــأَنَّ بالنـــارِ مـــا بالمـــاءِ مِـــن بَلَـــلٍ
حُزْنًـــا وبالمـــاءِ مـــا بالنـــار مِـــن ضَـــرَمِ

قوله: "**كأن بالنار...** إلخ"، الأصل: كأنما بالماء بالنار، "**وما**": اسم موصول بمعنى الذي، "**من بلل**": بيان لها، وقوله: "**حزنًا** " أي: للحزن، و"**الضرم**": الالتهاب، وحاصل المعنى أن النار التي خمدت تلك الليلة صارت كأن بها ما بالماء من بلل، فصارت مبتلة لحزنها، وأن الماء الذي غاض تلك الليلة صار كأن فيه ما بالنار من الضرم لحزنه أيضًا.

66. والجِـــنُّ تَهتِـــفُ والأنـــوارُ ســـاطِعَةٌ
والحـــقُّ يظهَـــرُ مِـــن معنـــىً ومِـــن كَلِـــمِ

قوله: "**والجن تهتف...** إلخ"، أي: وصارت الجن تهتف في الجبال والأودية، و"**الجن**": هم أولاد إبليس كما أن البشر أولاد آدم، وقيل: الجن أولاد الجان، فإبليس أبو الشياطين، والجان أبو الجن، والقول الأول أقوى، و"**الهتف**": قيل: الصوت مطلقًا،

وقيل: الصوت الخفي، "**والأنوار الساطعة**" أي: والأنوار التي خرجت معه صلى الله عليه وآله وسلم عند ولادته لامعة ظاهرة، ففي الحديث عن السيدة آمنة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: **p** لَمَّا وَلَدْتُهُ خَرَجَ مِنْ فَرْجِي نُوْرٌ أَضَاءَ لَهُ قُصُوْرُ الشَّامِ، فَوَلَدْتُهُ نَظِيْفًا مَا بِهِ قَذَرٌ **i** [1] وقوله: "**الحق يظهر من معنى ومن كلم**" أي: والحق الذي هو أمره صلى الله عليه وآله من نبوته ورسالته يظهر من معنى، كالأنوار ومن كلمه كهتف الجن.

67. عَمُـــوا وصَـــمُّوا فـــإعلانُ البشـــائِرِ لم
تُســـمَعْ وبارِقَـــةُ الإنـــذارِ لم تُشَـــمِ

قوله: "**عموا وصموا...** إلخ"، هذا البيت واقع في جواب سؤال مقدر، فكأن شخصًا قال له: إذا كان الحق يظهر من معنى ومن كلم، فما بال الكفار جحدوا نبوته صلى الله عليه وآله وسلم؟!، فأجابه المصنِّف بأنهم "**عموا وصموا**"، فالضمير فيها راجع للكفار، لكونهم لم ينتفعوا بما شاهدوه من المعنى ولا بما سمعوه من الكلم، وقوله: "**فإعلان البشائر لم تسمع**" أي: فإظهار البشائر به صلى الله عليه وآله وسلم كهتف الجن لم تسمع لهم سماع قبول، وقوله: "**وبارقة الإنذار لم تشم**" أي: ولامعة الإنذار به صلى الله عليه وآله وسلم، أي: تخويفهم به كالأنوار، لم تنظر لهم نظر قبول، فالمراد "**بالبارقة**": اللامعة، والمراد بقوله: "**لم تشم**" لم تنظر يقال شام البرق: نظر اليه.

68. مِـــن بعـــدِ مـــا أخبَـــرَ الأقـــوامَ كـــاهِنُهُم
بـــأنَّ ديـــنَهُمُ المُعْـــوَجَّ لَـــم يَقُـــمِ

قوله: "**من بعد ما أخبر** ...إلخ" متعلق بقوله: "**عموا وصموا**"، وفي ذلك غاية التقبيح بهم، حيث حجدوا من بعد ما علموا حقيقة الحال من كاهنهم الذي كانوا يصديقونه، و"**الكاهن**": من كان له تابع من الجنِّ يخبره بخبر السماء، وقوله: "**بأن دينهم المعوج لم يقم**" أي: بأن ما هم عليه من الدين المعوج - لاشتماله على عبادة الأصنام - لا قيام له مع وجوده صلى الله عليه وآله وسلم.

69. وبعـــدَ مـــا عـــاينُوا في الأُفـــقِ مِـــن شُـــهُبٍ
مُنقَضَّـــةٍ وَفْـــقَ مـــا في الأرضِ مِـــن صَـــنَمِ

قوله: "**وبعد ما عاينوا**...إلخ"، التقدير: عاينوه أي: شاهدوه وأبصروه، وقوله: "**في الأفق**" المراد به هنا: السماء لا حقيقته التي هي أطراف السماء المماسة للأرض؛ لعدم وجود الشهب في ذلك، وقوله: "**من شهب** ": جمع شهاب، وهو شعلة من

(1) رواه أحمد في (المسند)، والطبراني في (المعجم الكبير)، والبيهقي في (دلائل النبوة)، والحاكم في (المستدرك).

نار ساطعة، وقوله: "**منقضة**" أي: ساقطة من السماء على الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع من الملائكة ليلة ولادته صلى الله عليه وآله وسلم وقوله: "**وفق ما في الأرض**" أي: مثل ما في الأرض في الإنقضاض والسقوط، وقوله: "**من صنم**" بيان لها، و"**الصنم**": الوثن، وقيل: الصنم ما كان من حجر، والوثن: ما كان من غيره كالنحاس.

70. حتـــى غَـــدا عـــن طريـــقِ الـــوَحيِ مُنهَـــزِمٌ
مِـــن الشـــياطينِ يقفُـــو إثْـــرَ مُنهَـــزِمِ

قوله: "**حتى غدا**...إلخ" أي: و لم تزل الشهب تنقض إلى أن غدا... إلخ، و"**حتى**": بمعنى إلى، و"**غدا**" بمعنى: صار، و "**طريق الوحي**": هو السماء، و"**الوحي**": الكلام الخفي، والكتاب، والإلهام، إلى غير ذلك، و"**المنهزم**": الهارب، وقوله: "**من الشياطين**" بيان لمنهزم، وقوله: "**يقفو إثر منهزم**" أي: يتبع أثر هارب آخر، وحاصل المعنى: و لم تزل الشهب تنقض إلى أن صار هاربًا من الشياطين عن السماء التي هي طريق الوحي يتبع أثر هارب آخر، وهلمَّ جرا.

71. كَـــأَنَّهُمْ هَرَبًـــا أَبْطـــالُ أَبْرَهَـــةٍ
أو عَسْـــكَرٌ بالحَصَـــى مِـــنْ رَاحَتيـــهِ رُمِـــيْ

قوله: "**كأنهم هربًا**...إلخ" الضمير للشياطين، و"**هربا**" حال، أي: في حال كونهم هاربين، "**والأبطال**": جمع بطل، وهو الشجاع القوي جدًا، و"**أبرهة**": بالصرف للضرورة الشعرية: ملك اليمن، و"**العسكر**": الجيش، و"**الحصى**": حجارة صغير صلبة، و"**الراحتان**": بطنا الكف، ورمي الحصى كان في غزوة بدر.

72. نَبْـــذًا بـــهِ بعـــد تَسْـــبيحٍ ببطنِهمـــا
نَبْـــذَ المُسَـــبِّحِ مِـــنْ أَحْشـــاءِ مُلْـــتَقِمِ

قوله: "**نبذًا به**... إلخ" أي: نبذه صلى الله عليه وآله وسلم نبذًا... إلخ، وقوله: "**بعد تسبيح ببطنهما**" أي: بعد تسبيح الحصى في "**بطن**" الراحتين الشريفتين، بمعنى: الكفين، وظاهر كلام المصنِّف: أن الحصى المرمي به سبَّح في كفَّيه صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**نبذ المسبح من أحشاء ملتقم**" أي: كنبذ المُسبِّح الذي هو يونس عليه السلام من أحشاء المُلتقم له، و"**الأحشاء**": ما انضمت عليه الأضلاع، وقيل: الأمعاء، "**والملتقم له**" هو: الحوت، قال تعالى: ﴿ فَلْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (سورة الصافات: الآية 142).

[معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم]

73. جَـــاءتْ لِدعوتِـــهِ الأشـــجارُ ســـاجِدَةً
تَمشـــي إليـــهِ عَلـــى ســـاقٍ بـــلا قَـــدَمِ

قوله: "**جاءت لدعوته الأشجار...** إلخ" أي: أتت لطلبه الأشجار... إلخ، "**فالمجيء**": الإتيان، و"**الدعوة**": الطلب، و"**الأشجار**": جمع شجرة، وقوله: "**ساجدة**": حال من الأشجار، والمراد بالسجود هنا: معناه اللغوي، وهو الخضوع، وقوله: "**على ساق**": ما تحت الفروع من الشجرة، وقوله: "**بلا قدم**" صفة للساق أو متعلق بتمشي، وأشار بذلك لما روى أن أعرابيًا سأل النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم آية، فقال له: **p** قُلْ لِتِلْكَ الشَّجَرَةِ: رَسُوْلُ اللهِ يَدْعُوْكِ **i** ، فمالت عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها حتى قطعت عروقها، ثم جاءت تجرُّ عروقها في الأرض، فوقفت بين يديه، وقالت: السَّلام عليك يا رسول الله، قال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها، **p** فأمرها فرجعت **i** ، ودلَّت عروقها في منبتها فاستوت، فيه[1].

74. كَأَنَّمَـــا سَـــطَّرَتْ سَـــطْرًا لِمـــا كَتَبَـــتْ
فُرُوعُهَـــا مِـــنْ بَـــدِيعِ الخَـــطِّ بـــاللَّقَمِ

قوله: "**كأنما سطَّرت...**إلخ" المعنى: كأنما سطَّرت تلك الأشجار في حال مشيها سطرًا للذي كتبته فروعها، وهو الخطُّ البديع، أي الذي لم يعهد مثله، المرسوم في اللقم، "**اللقم**" - بفتح اللام، والقاف- أي: وسط الطريق؛ لكونها مشت مشي استقامة.

75. مِثْـــلُ الغَمَامَـــةِ أَنَّـــى سَـــارَ سَـــائِرَةً
تَقِيـــهِ حَـــرَّ وَطِـــيسٍ لِلْهَجِـــيرِ حَمِـــي

قوله: "**مثل الغمامة...**إلخ" أي: هي مثل الغمامة... إلخ، أي حال كونها مثل الغمامة في الإنقياد له صلى الله عليه وآله وسلم معجزةً وآيةً لردِّ المعارض، وقوله: "**أنى سار سائرة**" أي: في أي موضع سار هي سائرة، وقوله: "**حرَّ وطيس**" أي: حرَّ الشمس الشبيهة بالوطيس في الحرارة، وقوله: "**للهجير**" أي: عند الهجير، والهجير والهاجرة بمعنى واحد وهو: وسط النهار إذا كان حارًا، وقوله: "**حمي**" يصح جعله فعلاً ماضيًا فتكون الجملة صفة لوطيس، أو في موضع الحال من الهجير، أي حال كونه قد حمي، ويصحُّ جعله اسم فاعل بمعنى حام، وهذا البيت إشارةٌ إلى ما روى من أن أبا طالب خرج إلى الشام ومعه النبيُّ صلى

(1) رواه البزار في (مسنده)، والهيثمي في (مجمع الزوائد) من حديث بريدة، وروى القصة كاملة القاضي عياض في (الشفا) من حديث بريدة.

الله عليه وآله وسلم في أشياخ من قريش إلى أن أشرفوا على بَحِيْرا الرَّاهب، وكان في صومعته، فترلوا عنده وحطوا رحالهم، وكانوا يمرون به قبل ذلك فلا يخرج إليهم، وفي هذه المرَّة خرج إليهم، وجعل يتخلَّلهم حتَّى جاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: هذا سيَّد العالمين هذا رسولُ الله الذي يبعثه رحمة للعالمين، فقال له أشياخ قريش: وما أعلمك بهذا؟، فقال: إنكم من حين أشرفتم من مكة والغمامة تظلله فوق رأسه(1).

76. أَقْسَـــــمْتُ بِـــــالْقَمَرِ الْمُنشَـــــقِّ إِنَّ لَـــــهُ مِـــنْ قَلْبِـــهِ نِسْـــبَةً مَبْـــرُورَةَ القَسَـــمِ

قوله: "**أقسمت بالقمر**... إلخ" أي: أقسمت بربِّ القمر... إلخ، وقوله: "**المنشق**" أي: الذي انشق آيةً له صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن أهل مكة سألوه آيةً فأراهم انشقاق القمر فلقتين، فكانت فلقةٌ فوق الجبل، وفلقةٌ دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: p أشْهَدُوْا i ، فقال كفار قريش: قد سَحَرَنا محمَّدٌ، فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى يظهر هل رأوا مثل هذا؟، فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقًا، فقال كفار قريش: هذا سحرٌ مستمرٌ، فترل قوله تعالى: [اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ] (سورة القمر: الآيات 1-2)(2)، والمراد "**بالنسبة**": المناسبة والمشابهة في الانشقاق، وأما انشقاق قلبه الشريف فقد وقع أربع مرات، وقد جمعها بعضهم في قوله:

وشـــق صـــدر المصـــطفى وهـــو في	**دار بـــني ســـعد بـــلا مريـــة**
كشـــقه وهـــو ابـــن عشـــر، ثم في	**ليلـــة معـــراج، وعنـــد البعثـــة**

وقوله: "**مبرورة القسم**" أي: أن القسم عليها مبرورٌ فيه، يقال برَّ في يمينه إذا صدق فيها.

77. وَمَـا حَـوَى الغَـارُ مِـنْ خَيْـرٍ ومِـنْ كَـرَمٍ وكُـــلُّ طَـــرْفٍ مِـــنَ الكُفَّـــارِ عَنْـــهُ عَمِـــي

قوله: "**وما حوى الغار**... إلخ" أي: واذكر ما حوى الغار... إلخ، "**الغار**": ثقب في الجبل، وكان في جبل ثور بأسفل مكة، وقوله: "**من خير ومن كرم**" بيانٌ لما حوى الغار، والمراد "**بالخير**": الأخلاق الحميدة، "**وبالكرم**": الجود، وكلٌّ منهما لكلٍّ من النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكرٍ، ويحتمل: أنَّ الأول للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والثاني لأبي بكر، وعلى هذا فإنما خصَّه بالكرم لأنه آثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه وماله، ولذلك لَمَّا أتيا إلى الغار تقدَّم أبو بكر

---

(1) رواه الترمذي في (سننه) وقال: حديث حسن غريب، والحاكم في (المستدرك) وصححه.

(2) رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود.

في الدخول لاحتمال أن يكون فيه ما يؤذي فيتلقاه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1]، وقوله: "**وكل طرف...** إلخ" أي: والحال أن كل طرف... إلخ، فالواو للحال، و"**الطرف**" - بسكون الراء - هو: البصر، وقوله: "**عنه**" أي عن ما حوى الغار، وقوله: "**عمي**" يحتمل جعله فعلاً، وجعله اسمًا، وقد لبث النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر في الغار ثلاث ليال، وجاء الكفار حوالي الغار ينظرون فأعماهم الله تعالى عنهما.

78. فَالصِدْقُ فِي الغَارِ والصِدِّيقُ لَمْ يَرِمَا
وَهُمْ يقولونَ مَا بالغَارِ مِنْ أَرِمِ

قوله: "**فالصدق...** إلخ" أي: فذو الصدق...إلخ، أو يؤول الصدق بالصادق، وقوله: "**والصديق**": أي في الغار، وقوله: "**لم يرما**"- بكسر الراء- أي: لم يبرحا، وقوله: "**وهم يقولون**" أي: والحال أنهم يقولون... إلخ، والضمير راجع للكفار، و"**أرم**" - بفتح الهمزة، وكسر الراء- بمعنى: أحد، أي ليس في الغار شيء.

79. ظَنُّوا الحَمَامَ وظَنُّوا العَنْكَبُوتَ عَلَى
خَيْرِ البَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ ولمْ تَحُمِ

قوله: "**ظنوا الحمام...** إلخ" هذا البيت كالتعليل لما قبله كما علمت، و"**البرية**": الخلق، و"**خيرهم**": محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**لم تنسج**" - بكسر السين، وضمها- راجع للعنكبوت، وقوله: "**ولم تحم**"- بضم الحاء- راجع للحمام، وسبب ظنهم ذلك أن هذين الحيوانين متى أحسا بالإنسان فرا منه، و لم يعلموا أن الله تعالى يحفظ من شاء من عباده بما شاء من خلقة.

80. وقَايةُ اللهِ أَغْنَتْ عَن مُضاعفَةٍ بِهِ
مِن الدُّروعِ وعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُمِ

قوله: "**وقاية الله...** إلخ" أي: حفظ الله لهما من الكفار أغناهما عن مضاعفة من الدروع بأن يلبس الشخص درعًا فوق درع للحفظ من العدو، أو أن تنسج الدرع حلقتين، وقوله: "**وعن عال من الأطم**" أي: وأغنت عن عال من الحصون.

(1) رواها المحبُّ الطبري في (الرياض النضرة في مناقب العشرة).

81. مَـا سَـامَني الـدَّهرُ ضَـيْمًا واسْـتَجَرْتُ بـهِ
إلاَّ ونِلْـتُ جِـوَارًا مِنْـهُ لَـمْ يُضَـمِ

قوله: "**ما سامني الدهر يومًا...** إلخ" أي: ما ظلمني الدهر في يوم... إلخ، وقوله: "**واستجرت به**" أي: طلبت منه أن يجيرني من ذلك، وقوله: "**إلا ونلت جوارًا منه**" أي: إلا وأعطيت جوارًا - بكسر الجيم وضمها- أي: حمىً وحفظًا، وقوله: "**لم يضم**" - بالبناء للمجهول- أي: لم يحتقر، بل يحترم.

82. ولا الْتَمَسْـتُ غِنَـى الـدَّارَيْنِ مِـنْ يَـدِهِ
إلاَّ اسْـتَلَمْتُ النَـدَى مِـنْ خَيْـرِ مُسـتَلِمِ

قوله: "**ولا التمست...** إلخ"، الالتماس: الطلب بخضوع وذِلَّه، وقوله: "**غنى الدارين**" أي: داري الدنيا والآخرة، والغني في الأولى بالكفاية، وفي الثانية بالسلامة من العذاب، وقوله: "**من يده**" أي: من نعمته صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**إلا استلمت**" أي: إلا أخذت، وقوله: "**الندى**"- بفتح النون، مع القصر- هو: العطاء والكرم، وقوله: "**من خير مستلم**" - بفتح اللام- أي: من خير مستلم منه، وإنما كان صلى الله عليه وآله وسلم خير مستلم منه لأنه لا يرد سائله.

83. لاتُنْكِـرِ الـوَحْيَ مِـنْ رُؤيَـاهُ إنَّ لَـهُ
قَلْبًـا إذَا نَامَـتِ العَيْنَـانِ لَـمْ يَـنَمِ

قوله: "**لا تنكر الوحي...** إلخ" أي: لا تنكر الوحي حال كونه مبتدأ من رؤياه في النوم، فإن بدء الوحي كان بالرؤيا الصالحة في النوم، p وكان صلى الله عليه وآله وسلم لاَ يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثلَ فَلَقِ[1] الصُّبْحِ[2] i ، وقوله: "**إن له قلبًا...**إلخ" تعليل لما قبله، أي إن له صلى الله عليه وآله وسلم قلبًا له اليقظة الدائمة، وقد ورد في الصحيحين: p إنَّ عينيَّ تَنَامَانِ، وَلا يَنَامُ قَلْبِي i [3].

(1) الفلق: الصبح ينشق من ظلمة الليل.
(2) رواه البخاري ومسلم.
(3) رواه البخاري ومسلم من حديث السيدة عائشة.

84. وذَاكَ حِـــــينَ بُلـــــوغٍ مِـــــنْ نُبُوَّتِـــــهِ
فَلـــــيسَ يُنْكَـــــرُ فِيْـــــهِ حَـــــالُ مُحْـــــتَلِمِ

قوله: **"وذاك... إلخ"**: اسم إشارة راجعٌ للوحي من رؤياه في النوم، وقوله: **"حين بلوغ من نبوته"** أي: حين وصولٍ إلى نبوَّته، فالبلوغ بمعنى الوصول، و**"من"** بمعنى: إلى، والمعنى: والوحي من رؤياه في النوم كائن وحاصلٌ حين الوصول إلى نبوته، والمراد **"بحال المحتلم"**: الوحي من رؤياه في النوم؛ لأن **"المحتلم"** هو: النائم، و**"حاله"**: ما يراه في نومه، والحاصل: أن ذلك إنما كان في ابتداء النبوة، وقد نُبئ على رأس أربعين سنة، وذلك حدُّ مبدأ النبوة.

85. تَبَـــــارَكَ اللهُ مَـــــا وَحْـــــيٌ بِمُكْتَسَـــــبٍ
وَلا نَبِـــــيٌّ عَلَـــــى غَيْـــــبٍ بِمُـــــتَّهَمِ

قوله: **"تبارك الله... إلخ"** أي: تنزَّه الله وتعالى وارتفع عما يقوله: الكافرون علوًا كبيرًا، وقوله: **"ما وحيٌ بمكتسب"** أي: ليس وحيٌّ وإن قلَّ بمكتسبٍ لأحدٍ بسعيه فيه، فالذي عليه أهل الحق أن الوحي ليس مكتسبًا، قال تعالى: [اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ](سورة الأنعام: من الآية 124)، وقوله: **"ولا نبي على غيب بمتهم"** أي: ولا نبيٌّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمتهم على إخبار غيب، أي: على الإخبار بأمر غائب؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكذب كسائر المعاصي، ولا يرد قوله تعالى: [لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ](سورة الفتح: من الآية 2)، وقوله تعالى: [وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ](سورة الشرح: الآية 2)، ونحو ذلك؛ لأن ما يقع منهم من باب "حسنات الأبرار سيئات المقربين"، وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: [وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ](سورة التكوير: الآية 24)، أي: بمتَّهم، وإلى قوله تعالى: [وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى](سورة النجم: الآيات 3-4).

والحاصل: أن الأنبياء معصومون من الكبائر وصغائر الخِسَّة بإجماع، فأما قصة آدم وهي أنه أكل من الشجرة[1] وقد نهاه الله عنها فمحمولةٌ على أنه تأول النَّهي، مع أنه وإن كان منهيًّا ظاهرًا هو مأمور باطنًا لحكمةٍ يعملها الله تعالى، وأما قول إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام [هَذَا رَبِّي](سورة الأنعام: الآية 77) فقد ذكره مجاراة لهم، أي هذا ربي بزعمكم، وغرضه بذلك التوصل لبطلانه بلزوم المحال، ولذلك قال: [فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ](سورة الأنعام: الآية 76)، فكأنه قال: لو كان ربًّا لما أفل، فليس برب.

(1) إشارة الى قوله تعالى: [فَأَكَلا مِنهَا](سورة طه: الآية 120).

86. كَــــمْ أبْـــرَأَتْ وَصِـــبًا بِــــاللَّمْسِ رَاحَتـــهُ
وأَطْلَقَـــتْ أرِبًـــا مِـــنْ رِبْقَـــةِ اللَّمَـــمِ

قوله: "**كم أبرأت**... إلخ" أي: كثيرًا من المرات أبرأت... إلخ، وقوله: "**وصبًا**" - بكسر الصاد-: أي مريضًا، وقوله: "**باللمس**" أي: بسبب اللمس، وأشار بذلك إلى ما روى من أن عين قتادة[1] أصيبت يوم أحد ووقعت على وجنته، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: إن لي امرأة أحبُّها، وأخشى أنَّها إن رأتني على هذه الحالة قذرتني، وارتفع حبِّي من قلبها، p فأخذ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم عينه بيده، وردَّها إلى موضعها، وقال: اللّهُمَّ أَكْسِبْهَا جَمَالاً i ، فكانت أحسن عينيه[2]، وقوله: "**وأطلقت**" أي: وحلت راحته، وقوله: "**أربا**"- بفتح الهمزة، وكسر الراء، بوزن فرحًا- أي: ذا أرب وحاجة، وقوله: "**من ربقة اللمم**" أي: من عقد الجنون، ويصحُّ تفسيره بالذنوب والمعاصي، وأشار بذلك إلى ما روي من أن امرأة أتت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بابن لها به جنون، p فمسح بيده المباركة صدره i ، فثعَّ ثعَّةً: أي قاء قيئةً، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود، وبرئ لوقته[3].

87. وأَحْيَـــتِ السَّـــنَةَ الشّـــهْباءَ دَعْوَتُـــهُ
حَتَّـــى غَـــدَتْ غُـــرَّةً فِي الأَعْصُـــرِ الـــدُّهُمِ

قوله: "**وأحيت السنة الشهباء**... إلخ" أي: وأخصبت السنة الشهباء... إلخ، و"**الشهباء**": قليلة المطر، "**دعوته**" أي: دعاؤه بالسقيا، و"**غرة**" كل شيء: أحسنه، "**والأعصر**": جمع عصر وهو: الزَّمن، و"**الدُهُم**" - بضم الدال، والهاء-: جمع أدهم، وهو الأسود، فتلك السنة كثر خصبها جدًا، حتى كأنها غرَّةٌ في تلك الأعصر.

وأشار بذلك إلى ما رواه الشيخان عن أنس رضي الله تعالى عنه: أَنَّ رَجُلا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ p وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ i ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُغِيثَنَا، قَالَ: p فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا i ، قَالَ أَنَسٌ: لا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلا قَزْعَةٍ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلا دَارٍ، فَطَلَعَتْ مِنْ زَاوِيَةٍ سَحَابَةٌ مِثْلُ التِّرْسِ فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ يَعْني السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ

---

(1) هو الصحابي قتادة بن النعمان بن زيد الأنصاري الأوسي، وهو أخو الصحابي أبو سعيد الخدري لأمه، ولد قبل الهجرة باثنين وأربعين سنة، شهد بدر والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، توفي في المدينة سنة 23 هجرية وصلى عليه عمر بن الخطاب، وهو يومئذ ابن خمس وسبعين سنة، ونزل في حفرته أخوه أبو سعيد الخدري، ومُحَمَّد بن مسلمة، والحارث بن خزيمة الخزرجي، روى له البخاري، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ذكره الحافظ المزي في (تهذيب الكمال).

(2) رواه البيهقي في (دلائل النبوة)، وأبو نعيم في (الدلائل)، والهيثمي في (مجمع الزوائد)، وغيرهم.

(3) رواه البيهقي في (دلائل النبوة)، وأحمد في (المسند)، والدارمي في (السنن) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

أَنَسٌ: وَلا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ الشَّمْسَ سَبْتًا، قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ p وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ i ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُمْسِكَهَا عَنَّا، قَالَ: p فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلا عَلَيْنَا اللَّهُمَّ عَلَى الظِّرَابِ وَالآكَامِ وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ i ، قَالَ: فَأَقْلَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ، قَالَ شَرِيكٌ: فَسَأَلْنَا أَنَسًا أَهُوَ الرَّجُلُ الأَوَّلُ؟ فَقَالَ: لا أَدْرِي.

88. بعَـــارِضٍ جَـــادَ أو خِلْـــتُ البِطَـــاحَ بِهَـــا
سَـــيْبًا مِـــنَ الْـــيَمِّ أو سَـــيْلاً مِـــنَ العَـــرِمِ

قوله: "**بعارض...** إلخ" أي: أحيت السنة الشهباء دعوته بعارض، والمراد "**بالعارض**": السحاب، وقوله: "**جاد**" أي: جاد بالمطر الكثير، وقوله: "**أو خلت**" أي: أو ظننت، و"**أو**" بمعنى إلى، و"**البطاح**": جمع أبطح، وهو الوادي المتسع الذي فيه دقاق الحصى، و"**السيب**" الجري، و"**اليم**": البحر، و"**العرم**"- بفتح العين، وكسر الراء- في الأصل: اسم لما يمسك الماء من بناء وغيره، وهو أيضًا اسم لواد، فالناظر يتشكك في الماء الكثير الكائن على سطح الأرض، هل هو سيبٌ من البحر، أو سيل من السَّدِّ.

[القـرآن الكـريـم]

89. دَعْنِـــي وَوَصْـــفِي آيَـــاتٍ لَـــهُ ظَهَـــرَتْ
ظُهُـــورَ نَـــارِ القِـــرَى لَـــيْلاً عَلَـــى عَلَـــمِ

قوله: "**دعني...** إلخ"، لَمَّا ذكر الناظم جملة من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم قدَّر أن العدو المعاند والكافر الجاحد قالا له: كفَّ عن ذكر هذه الآيات التي لا نسلِّمها، فأجابه بقوله: "**دعني...** إلخ"، كأنه يقول له: كيف تنكرها، وقد ظهرت ظهورا تامًّا؟، وقوله: "**ووصفي آياتٍ**" أي: اتركني وذكري آياتٍ، والمراد "**بالآيات**": المعجزات الدالة على نبوته صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**له**" أي: آيات كائنة له صلى الله عليه وآله وسلم، و"**ظهور نار القِرى**": أي ظهرت ظهورًا مثل ظهور نار القرى - بكسر القاف -الذي هو الضيافة، وقوله: "**على علم**" أي: على جبل، وقد جرت عادة الكرام من العرب بإيقاد تلك النار على الجبل؛ ليهتدي الضيفان إلى منازلهم.

90. فَالـــدُّرُّ يَـــزْدَادُ حُســـنًا وهْـــو منـــتظمٌ
ولَـــيْسَ يَـــنْقُصُ قَـــدْرًا غَيْـــرَ مُنـــتَظِمِ

قوله: "**الدُّرُّ**" هو اللؤلؤ يزداد حسنًا؛ والحال أنه منتظم في السلك؛ لترتيبه، وتنزيله في المنازل المتناسبة، وليس ينقص قدرًا حال كونه غير منتظم؛ لأن حسنه ذاتي له.

91. فَمَـــا تَطـــاوُلُ آمَـــالِ المَـــدِيحِ إلى
مَـــا فِيْـــهِ مِـــنْ كَـــرَمِ الأَخْـــلاقِ والشِّـــيَمِ

قوله: "**فما تطاول...** إلخ"، "**ما**": نافية، و"**التطاول**" في الأصل: مدُّ العنق، و"**الآمال**": جمع أمل، وهو الرجاء، و"**المديح**": هو الثناء الحسن، وقوله: "**إلى ما فيه**" أي: إلى استقصاء ما فيه صلى الله عليه وآله وسلم، و"**الأخلاق**": جمع خُلُق - بضمتين-، وهو الطَّبيعة، و"**الشيم**": جمع شيمة، وهي الخُلُق - بضمتين-، والمعنى: فلم تتطاول آمالي بالمديح الصادر مني إلى استقصاء ما فيه صلى الله عليه وآله وسلم من كرم الأخلاق والشيم؛ لعلمي باليأس من ذلك والعجز.

92. آيَـــاتُ حَـــقٍّ مِـــنَ الـــرَّحْمَنِ مُحْدَثَـــةٌ
قَدِيمَـــةٌ صِـــفَةُ المَوْصُـــوفِ بالقِـــدَمِ

قوله: "**آيات حق...** إلخ" أي: من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم آيات حق... إلخ، "**آياتٌ**" موصوفة بأنها حق، هي القرآن، وقوله: "**من الرحمن**" أي: من عند الرحمن لا من عند محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم كما زعمه كفار قريش، وقوله: "**محدثة**" أي: أحدثها الله تعالى، قال تعالى: [وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ](سورة الشعراء: الآية 5)، وقوله: "**قديمة**" استشكل بأنه ينافي قوله: محدثة، وأجيب بأنها محدثة باعتبار الألفاظ، قديمة باعتبار المعاني، وبهذا كله ظهر قوله: "**صفة الموصوف بالقدم**" فليس المراد أن الألفاظ التي نقرؤها صفة للموصوف بالقدم الذي هو الله تعالى؛ لأنها حادثة، بل المراد أن معناها صفة له تعالى.

93. لَـــمْ تَقْتَـــرِنْ بزِمَـــانٍ وهْـــيَ تُخْبِرُنَـــا
عَـــنْ المَعَـــادِ وعَـــنْ عَـــادٍ وعَـــنْ إرَمِ

قوله: "**لم تقترن بزمان...** إلخ" أي: لأنها قديمة من حيث معناها، و"**الزمان**" حادث، وقوله: و"**هي**" أي: هذه الآيات، وقوله: "**تخبرنا عن المعاد**" أي: عن عود الخلق بعد انعدامهم، وقوله: "**وعن عاد**" أي: وتخبرنا عن قبيلة عاد التي بُعث إليها هود عليه الصلاة والسلام، ويقال لهم أيضًا: ارم، تسمية باسم جدهم إرم، وقيل إن ارم اسم أرضهم وبلدهم، وقيل: إنها مدينة بناها شداد بن عاد لبنة من فضة وأخرى من ذهب في صحن عدن، وجعل فيها أنهارًا مطردة وأصنافًا من الشجر، وأتمَّ بناءها في ثلثمائة سنة، وعند كمالها ارتحل إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فأهلكتهم، وقوله: "**وعن إرم**"- بكسر الهمزة - تسمى عادًا الأخرى.

94. دَامَـــتْ لَـــدَيْنا فَفَاقَـــتْ كُـــلَّ مُعْجِـــزَةٍ
مِـــنَ النَبِيِّـــيْنَ إِذْ جَـــاءَتْ ولَـــمْ تَـــدُمِ

قوله: "**دامت لدنيا...** إلخ" أي: استمرت عندنا، فتسبَّب عن ذلك أنها فاقت كل معجزة صادرة من النبيين غير نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**إذ جاءت ولم تدم**" أي: إذ جاءت عنهم و لم تستمر، بل لم تظهر على أيديهم إلا مرَّة واحدةً، وذلك حين التَّحدِّي، ثمَّ لم تظهر بعد ذلك، وإليه أشار صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: p مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ

الْقِيَامَةِ i [1]، فشريعته صلى الله عليه وآله وسلم باقية إلى يوم الدين، فناسب أن تكون معجزة كذلك، و"**المعجزة**": هي الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، وهو دعوة النبوة أو الرسالة، وهي مأخوذة من الإعجاز؛ لأنها أعجزت الخصوم على أن يأتوا بمثلها.

95. مُحْكَمَـــاتٌ فَمَـــا تُـــبقينَ مِـــنْ شُـــبَهٍ
لِـــذي شِـــقَاقٍ ومـــا تَـــبْغينَ مِـــنْ حَكَـــمِ

قوله: "**محكماتٌ... إلخ**" أي: والآيات المذكورة محكمات، ومعنى "**محكمات**": متقنات النظم في البلاغة والفصاحة، أو أن معنى محكمات: ذوات حكمة، وقوله: "**فما تبقين من شبه لذي شقاق**" أي: فما تترك تلك الآيات المحكمات شُبهًا لصاحب شقاق وهو الكافر؛ لأنه مشاقُّ الدين، و"**الشُبه**": جمع شبهة، وهي ما يظن دليلاً وليست بدليل، "**وما تبغين من حكم**" -بفتح التاء - أي: ولا تطلبن حكمًا، يعني حاكمًا يحكم على ذلك المخالف للحقِّ بأنه على خلاف الصواب لظهور براهينها عليه، و"**ما**": نافية في الموضعين.

96. مَـــا حُوربـــتْ قَـــطُّ إلاّ عَـــادَ مِـــنْ حَـــرَبٍ
أَعْـــدَى الأَعَـــادي إِلَيْهَـــا مُلْقِـــيَ السَّـــلَمِ

قوله: "**ما حوربت... إلخ**" أي: ما حورب الآتي بها - وهو النبيُّ صلى الله عليه وسلم في الزمن الماضي- إلا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم هو الغالب، ورجع أشد الأعادي عداوة إليه ملقى السلاح، وسلَّم له صلى الله عليه وسلم إما بدخوله في الإسلام، وإما بتركه المحاربة من أجل شدة بلاغتها، ويحتمل أن المراد بالمحاربة المعارضة، و"**من**" فيه بمعنى: من أجل، وحقيقة الحرب - بفتحتين-: سلب المال، لكن المراد به هنا الشدة، أي: شدة بلاغتها، "**أعدى الأعادي**": أشد الأعادي عداوة، ومعنى السَّلَم - بفتحتين-: السلاح.

97. رَدَّتْ بَلاغَتُهَـــا دَعْـــوى مُعارِضِـــها
رَدَّ الغَيُـــورِ يَـــدَ الجَـــانِي عَـــنِ الحَـــرَمِ

قوله: "**ردت بلاغتها... إلخ**" أي: أبطلت بلاغتها دعوى معارضها، كما وقع لمسيلمة الكذاب، حيث عارض لعنه الله تعالى القرآن لما ادعى النبوة، وأراد أن يأتي بقرآن يشبه القرآن، فقال في معارضة سورة النازعات: "والطاحنات طحنا،

(1) رواه البخاري في كتاب فضائل القران من (صحيحه)، و مسلم في (كتاب الإيمان) من (صحيحه)، وأحمد في (المسند)، والنسائي في (الكبرى)، والبغوي في (شرح السنة)، والبيهقي في (السنن الكبرى)، وعياض في (الشفا)، وأبو عوانة في (مستخرجه) ، كلهم من حديث أبي هريرة.

والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا"، وقوله: "**رد الغيور**" أي: ردًا مثل رد الشخص الغيور الذي هو شديد الغير على النساء، و"**الحرم**" - بضم الحاء، وفتح الراء-: جمع حرمة، كامرأته وأخته وغيرهما، وظاهر كلام المصنِّف أن إعجاز القرآن للبشر عن الإتيان بمثله بسبب ما اشتمل عليه من البلاغة التي لم يصلوا إليها، وعلى ذلك فالقرآن ليس من جنس مقدورهم، وهو قول الجمهور.

98. لَهَـــا مَعـــانٍ كَمَـــوْجِ البَحْـــر في مَـــدَدٍ
وفَـــوْقَ جَـــوْهَرِهِ فِـــي الحُسْـــنِ والقِـــيَمِ

قوله: "**لها معانٍ...** إلخ" أي: لتلك الآيات معان كثيرة لا نهاية لها، "**كموج البحر في مدد**" أي: مثل موج البحر في كونه يمد بعضه بعضًا، إذ ما موجة إلا وبعدها موجةٌ، وأشار بذلك إلى قوله: بعضهم: أقلُّ ما قيل في العلوم التي في القرآن من ظواهر المعاني المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم، وثمانمائة علم، وما حُكي عن بعضهم من أنه قال: لكل آية ستون ألف فهم، وما بقي من فهمها أكثر، وقوله: "**وفوق جوهره في الحسن والقيم**" أي: ولها معان فوق الجوهر المستخرج من البحر في حسنها البديع، وفي قدرها وشرفها، و"**القيم**" - بكسر القاف، وفتح الياء-: جمع قيمة، والمراد بها هنا: ما لها من القدر والشرف مجازًا.

99. فَمَـــا تُعَـــدُّ وَلا تُحْصَـــى عَجَائِبُهـــا
ولا تُســـامُ عَلَـــى الإكثَـــارِ بالسَّـــأَمِ

قوله: (**فلا تعدُّ ولا تحصى...**إلخ) "**عجائبها**" أي: معانيها العجيبة، "**والعجائب**": جمع عجيبة، وهي الشيء العديم النظير، أو قليله، وقوله: "**ولا تسام**" أي: لا توصف، وقوله: "**على الإكثار**" أي: مع الإكثار منها الذي لا غاية له، وقوله: "**بالسأم**" أي: الملل، وحاصل المعنى: أنه إذا كان لها معانٍ كموج البحر في الكثرة التي لا غاية لها، ولا توصف بالملل مع الإكثار منها لحسنها، فغيرها من الكلام ولو بلغ الغاية فيما يليق به من الحسن والبلاغة يوصف بالملل مع الإكثار منه بخلاف آيات القرآن.

100. قَـــرَّتْ بِهَـــا عَـــيْنُ قَارِيْهَـــا فقلـــتُ لَـــهُ
لَقَـــدْ ظَفِـــرْتَ بحَبْـــلِ اللهِ فاعْتَصِـــمِ

قوله: "**قرت بها...** إلخ" أي: سكنت واطمأنت بتلك الآيات عين قارئها لحصول السرور لها، فإن عين الحزين تكون مضطربة، وعين المسرور تكون ساكنة، وقيل: من القُرِّ - بضم القاف- وهو البرد، والمعنى: بردت بدمعة الفرح، و لم تسخن

بدمعة الحزن عين قارئها، وقوله: **"لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم"** أي: والله لقد فزت بما يوصلك إلى الله، فامتنع ببركة قراءته من عذاب الله أو امتنع باتباع أوامره واجتناب نواهيه من الوقوع في المخالفة المؤدية إلى عقاب الله تعالى.

101. إنْ تَتْلُهَا خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارِ لَظَى
أَطْفَأْتَ نَارَ لَظَى مِنْ وِرْدِهَا الشّبِمِ

قوله: **"إن تتلها... إلخ"** أي: إن تقرأها... إلخ، وقوله: **"خيفة"** أي: خوفًا، وقوله: **"من حر نار لظى"** أي: التي هي جهنم، وقوله: **"من وردها"** الورد بمعنى المورد، وهو المحلُّ الذي يورد منه الماء، وقوله: **"الشبم"** - بفتح السين المعجمة المشددة، وكسر الموحَّدة- أي: البارد، فالماء يطفئ حرارة العطش، والآيات تطفئ حرارة نار جهنم أعاذنا الله منها بمنه وكرمه.

102. كَأنَّها الحَوضُ تَبْيَضُّ الوُجوهُ بِهِ
مِنْ العُصَاةِ وقَدْ جَاءوهُ كَالحُمَمِ

قوله: **"كأنها الحوض... إلخ"** أي: كأن الآيات المذكورة ماء الحوض... إلخ، وقوله: **"الوجوه"** أي: ذوو الوجوه، وقوله: **"به"** أي: بالحوض، قوله: **"من العصاة"** أي: حال كونهم بعض العصاة، فمن للتبعيض، وقوله: **"وقد جاءوه"**: الضمير الفاعل راجع للعصاة، والضمير المفعول راجع للحوض، وقوله: **"كالحمم"** أي: حال كونهم كالحُمَم- بضم الحاء المهملة- أي مثل: الفحم، **"فالحمم"**: جمع حمة، بمعنى: فحمة، ووجه تشبيهها بالحوض المذكور أنَّ الآيات تشفع في تاليها، وقد جاء مسودَّ الوجه من المعاصي فيبيضُّ وجهه بشفاعتها، كما أن الحوض تبيضُّ به وجوه العصاة حين يُصبُّ عليهم منه بعد مجيئهم من النار كالفحم في السَّواد الذي أصابهم من النار، فيعودون بيضًا كالقراطيس[1]، ثم يدخلون الجنة.

103. وَكالصِّراطِ وكالمِيزانِ مَعْدِلَةً
فَالْقِسْطُ مِنْ غَيرِها في النَّاسِ لَمْ يَقُمِ

قوله: **"وكالصراط... إلخ"** أي: وهذه الآيات كالصراط استقامةً، والمراد **"بالصراط"**: الدين الذي لا اعوجاج فيه، أو المراد به الجسر الممدود على متن جهنم، وقوله: **"وكالميزان معدلة"** أي: وكالميزان من جهة العدل، فمعدلة بمعنى عدلاً هو الميزان الذي يكون في يوم القيامة، وقوله: **"فالقسط من غيرها في الناس لم يقم"** أي: فالقسط - بكسر القاف- الذي هو العدل المأخوذ من غيرها، كالمأخوذ من السُنَّة، أو الإجماع، أو القياس، أجيب بأن ذلك مأخوذ منها أيضًا.

(1) القراطيس: جمع قرطاس، وهو الصحيفة التي يُكتب فيها.

104. لا تَعْجَــــبَنْ لِحَسُــــودٍ راحَ يُنكِرُهـــــا
تَجــــاهُلاً وهْــــوَ عَــــينُ الحـــــاذِقِ الفَهِــــمِ

قوله: "**لا تعجبن...** إلخ" أي: لا ينبغي العجب؛ لأنه إذا ظهر السبب بطل العجب، وها هنا قد ظهر السبب وهو الحسد، وقوله: "**راح ينكرها**" أي: ذهب ينكر كونها من عند الله، وقوله: "**تجاهلاً**" أي: حال كونه متجاهلاً، أي مُظهرًا للجهل، وقوله: "**وهو عين الحاذق الفهم**" أي: والحال أنه عين الحاذق أي الماهر، "**الفهم**"- بفتح الفاء، وكسر الهاء- أي: الشديد الفهم، وحينئذ فإنكارها عناد دعاه إليه الحسد.

105. قَــدْ تُنْكِــرُ العَــيْنُ ضَــوءَ الشمس مِــنْ رَمــدٍ
ويُنْكِــــرُ الفَــــمُ طَعْــــمَ المَــــاءِ مِــــنْ سَــــقَمِ

قوله: "**قد تنكر...** إلخ"، لَمَّا ادعى أنَّ إنكارها للحسد مع كونها متصفة بالمعجزات المذكورة أثبت ذلك بأمرين محسوسين: الأوَّل: "**إنكار العين ضوء الشمس**" من أجل الرمد القائم بها، والثَّاني: "**إنكار الفم طعم الماء**" من أجل السقم القائم به، فكذلك إنكار الآيات من أجل الحسد القائم بالمنكر.

[الإسراءُ والمعراج]

106. يـــا خَيْـــرَ مـــنْ يَمَّـــمَ العـــافُونَ ســـاحَتَهُ
سَـــعْيًا وفَـــوْقَ مُتُـــوْنِ الأَيْنُـــقِ الرُّسُـــمِ

قوله: "**يا خير من يمم...** إلخ" أي: يا خير كريم قصد **العافون** - وهم الطالبون للمعروف- بساحته، و"**العافون**": جمع عافٍ، وهو طالب المعروف، "**والساحة**": حرم الدار الواسع، "**وسعيًا**": بمعنى ساعين، و"**المتون**": جمع متن، وهو الظَّهر، و"**الأينق**": جمع ناقة، وأصله: أنوق، قدمت الواو على النون فصار أونق، ثم قلبوها ياء فصار أينق، و"**الرُّسم**" - بضم الراء المشددة، وضم السين-: جمع رَسوم، وهي الناقة التي تؤثر في الأرض من شدة الوطء عليها.

107. وَمـــنْ هُـــو الآيَـــةُ الكُبْـــرَى لِمُعْتَبِـــرٍ
وَمَـــنْ هُـــوَ النِّعْمَـــةُ العُظْمَـــى لِمغْتَـــنِمِ

قوله: "**ومن هو...** إلخ" أي: ويا من هو... إلخ، فـــ "**من**" هنا واقعة عليه صلى الله عليه وآله وسلم وحده، وقوله: "**الآية الكبرى لمعتبر**" أي: الآية الكبرى التي هي أكبر الآيات لمتأمل ومتفكر، فمن تأمل ذلك عرف أنه الآية العظمى، أي الدليل الأعظم على أن ما جاء به حق، وقوله: "**ومن هو...** إلخ" أي: ويا من هو... إلخ، وقوله: "**النعمة العظمى لمغتنم**": أعظم النعم للمريد أن يغتنم ما عند الله من السعادة الأبدية، قال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ](سورة الأنبياء: الآية 107).

108. سَـــرَيْتَ مِـــنْ حَـــرَمٍ لَّـــيْلاً إِلَـــى حَـــرَمٍ
كَمَـــا سَـــرَى البَـــدْرُ فِي دَاجٍ مِـــنْ الظُّلَـــمِ

قوله: "**سريت...** إلخ" كأنه قال: ومن معجزاتك: أنك سريت... إلخ، "**سريت**": سرت ليلاً؛ لأن السرى هو السير ليلاً، وقوله: "**من حرم**" أي: حرم مكة، وقوله: "**ليلاً**" أي: في ليل، وإنما خصَّ الليل بذلك دون النهار لأنه وقت تفريغ البال وقطع العلائق، وقيل: لأن الله تعالى لما محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر خاطر الليل، فجبر بأن أسرى فيه بمحمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**إلى حرم**" أي: حرم بيت المقدس، وقوله: "**كما سرى البدر**" أي: مثل سير البدر الذي هو القمر ليلة كماله، وهي ليلة أربعة عشر، و"**الداجي**": اسم لِليل المظلم، يقال: دجل الليل أي: أظلم، فهو داج، أي: مظلم، فقوله: "**من الظلم**" تكملة، أي: من ذي الظلم، جمع ظلمة، وفي هذا البيت إشارة إلى قصة الإسراء، وقد ذكرها الله تعالى

بقوله: [سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ](سورة الإسراء: من الآية 1).

109. وَبِـــتَّ تَرْقَـــى إِلَـــى أَنْ نِلْـــتَ مَنْزِلَـــةً
مِـــنْ قَـــابِ قَوْسَـــيْنِ لَـــمْ تُـــدْرَكْ وَلَـــمْ تُـــرَمِ

قوله: "**وبتَّ ترقى...** إلخ" أي: وبعد وصولك إلى بيت المقدس بتَّ ترقى أي: تصعد، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم نُصِبَ له معراجٌ له مَرْقاةٌ، فصعد عليها إلى سماء الدنيا، فلما جاوز السماء الأولى دليت المرقاة فصعد عليها إلى السماء الثانية، وهكذا إلى السماء السابعة، ثم إلى الكرسي، ثم إلى سدرة المنتهى ثم إلى مستوى سَمِعَ فيه صريف الأقلام، ثم دلى له الرفرف وهو سحابة خضراء فصعد عليها إلى ما شاء الله تعالى، وقوله: "**إلى أن نلت منزلة**" أي: إلى أن أعطيت مرتبة في القرب، وقوله: "**من قاب قوسين**" بيان للمنزلة، والأصل من قابي قوس؛ لأن كل قوس له قابان، وبينهما شيء قليل جدًا، فبينهما غاية القرب، وقوله: "**لم تدرك**" أي: لم يدركها غيرك، وقوله: "**ولم ترم**" أي: لم يرمها غيرك و لم يطلبها للعلم بأنها ليست إلا لك، وفي هذا البيت إشارة إلى قصة المعراج، وقد ذكرها الله تعالى بقوله: [ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى](سورة النجم: الآيات 8-9).

110. وَقَـــدَّمَتْكَ جَمِيـــعُ الأَنْبِيَـــاءِ بِهَـــا
وَالرُّســـلِ تَقْـــدِيمَ مَخـــدُومٍ علـــى خَـــدَمِ

قوله: "**وقدمتك...** إلخ"، أي: التقديم في الرتبة والمكانه، كما يدل عليه قوله تعالى: [وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا](سورة آل عمران: الآية 81)، قوله: "**بها**" أي: بتلك المنزلة، وقوله: "**والرسل**" أي: وجميع الرسل، وقوله: "**تقديم مخدوم على خدم**" أي: تقديمًا مثل تقديم مخدوم على خدم.

111. وَأَنْـــتَ تَخْتَـــرِقُ السَّـــبْعَ الطِّبَـــاقَ بِهِـــمْ
فِي مَوْكِـــبٍ كُنْـــتَ فِيـــهِ صَـــاحِبَ العَلَـــمِ

قوله: "**وأنت تخترق...** إلخ" بمعنى تقطع السموات السبع الطباق، أي التي هي طبقة فوق طبقة، وقوله: "**بهم**" أي: حال كونك مارًا بالأنبياء، ففي حديث الإسراء في (صحيح مسلم) p ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ... فَأَتَيْنَا عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ i ، وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِقِصَّتِهِ، p وَذَكَرَ أَنَّهُ لَقِيَ فِي السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ عِيسَى وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلام، وَفِي الثَّالِثَةِ يُوسُفَ،

وَفِي الرَّابِعَةِ إِدْرِيسَ، وَفِي الْخَامِسَةِ هَارُونَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَأَتَيْتُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام ... ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَأَتَيْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ i [1]، وقوله: "**في موكب**" الموكب: الجمع العظيم المتلبس بهيئة عظيمة، وقد كان معه صلى الله عليه وآله وسلم جبريل، وجملة "**كنت فيه صاحب العلم**" أي: كنت فيه المشار إليه؛ لأن العلم الرمح في رأسه راية، ومن شأن صاحبه أن يشار إليه، وكان جبريل يستفتح في كل سماء فيقال له: ومن معك؟ فيقول: محمَّد.

112. حَتَّـــى إذا لَـــمْ تَـــدَعْ شَـــأوًا لِمُسْـــتَبِقٍ
مِـــــنَ الـــــدُنُوِّ ولا مَرْقـــــىً لِمُسْـــــتَنِمِ

قوله: "**حتَّى إذا...** إلخ" غايةٌ، أي: إلى مقام القرب، قوله: "**لم تدع شأوًا لمستبق**" أي: لم تترك غاية لطالب سبقٍ، و"**شأوا**" أي: غاية، و"**المستبق**": طالب السبق، و"**من الدنو**" أي: من القرب، و"**المرقى**": محل الرقي، وهو الدرجة، و"**المستنم**": طالب الرفعة وهو الساعي ليرتفع.

113. خَفَضْـــتَ كُـــلَّ مَقَـــامٍ بالإضـــافَةِ إِذْ
نُودِيـــتَ بِـــالرَّفْعِ مِثْـــلَ الْمُفْـــرَدِ الْعَلَـــمِ

قوله: "**خفضت كل مقام...** إلخ" أي: خفضت كل رتبة لغيرك، وقوله: "**بالإضافة**" أي: بالنسبة إلى مقامك لا مطلقًا، وإلا فالأنبياء كلهم متصفون بالكمال، لكنه صلى الله عليه وآله وسلم أكمل، فمقام غيره منخفض بالنسبة لمقامه المرتفع عن مقام كل مخلوق، وإياك أن تعتقد أن غيره صلى الله عليه وآله وسلم من الأنبياء ليس متصفًا بالكمال؛ لأن ذلك كفر، وقوله: "**إذ نوديت بالرفع**" أي: لأنك نوديت من قبل الله تعالى نداءً مصحوبًا برفع شأنك إلى ما لم يصله أحد غيرك، قوله: "**مثل المفرد العلم**" فكما أن المفرد العلم خُصَّ بكونه نودي نداء مصحوبًا بالرفع من بين أقسام المنادي، فإن ما عداه منها منصوب، كذلك صلى الله عليه وآله وسلم خُصَّ بكونه نودي نداءً مصحوبًا بالرفع من بين سائر الأنبياء، والمراد "**بالمفرد العلم**": المعرفة.

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان من (صحيحه).

114. كَيْمـــا تَفُـــوزَ بوَصـــلٍ أَيِّ مُسْـــتَتِرٍ
عَـــنِ الْعُيُـــونِ وَسِـــرٍّ أَي مُكْتَـــتَمِ

قوله: "**كيما تفوز...** إلخ" فالمعنى فعلت ذلك لأجل أن تفوز... إلخ، أي: تظفر بوصلٍ من الله لك، حيث أحلَّك المنزلة التي رفعك إليها، وقوله: "**أي مستتر عن العيون**" أي: وصلٍ كاملٍ في الاستتار عن العيون، وقوله: "**وسرٍّ أي مكتتم**" أي: سرٍّ كامل في الاكتتام عن الخلق، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾(سورة النجم: الآية 10).

115. فَحُـــزْتَ كُـــلَّ فَخَـــارٍ غَيْـــرَ مُشْـــتَرَكٍ
وَجُـــزْتَ كُـــلَّ مَقَـــامٍ غَيْـــرَ مُـــزْدَحَمِ

قوله: "**فحزت...** إلخ"، "**فحزت**" الحيازة: الجمع، فمعنى حزت جمعت، و"**الفخار**": هو ما يفتخر به من الفضائل، وقوله: "**غير مشترك**" أي: بينك وبين غيرك، بل هو مختصٌّ بك، وقوله: "**وجزت**" أي: عبرت وتجاوزت، وقوله: "**كل مقام**" المقام: الرتبة، وقوله: "**غير مزدحم**" - بفتح الحاء- أي: غير مزدحم فيه لعدم الواصلين إليه.

116. وَجَـــلَّ مِقْـــدَارُ مَـــا وُلِّيـــتَ مِـــن رُّتَـــبٍ
وعَـــزَّ إِدْرَاكُ مَـــا أُولِيـــتَ مِـــن نِعَـــمِ

قوله: "**وجَلَّ...** إلخ" أي: عظم ذلك فلا يحاط به، وقوله: "**ما وليت**" - بالبناء للمفعول- أي: ما ولاك الله، وقوله: "**من الرتب**": المناصب الشريفة، وقوله: "**وعزَّ**" أي: امتنع ذلك، فلا يحصل لأحد غيرك، وقوله: "**ما أوليت**" - بالبناء للمفعول-؛ أي: ما أولاك مولاك، أي: أنعم عليك.

117. بُشْـــرى لَنَـــا مَعْشَـــرَ الإِسْـــلامِ إِنَّ لَنَـــا
مِـــنَ العِنايَـــةِ رُكْنًـــا غَيْـــرَ مُنْهَـــدِمِ

قوله: "**بشرى لنا...** إلخ" أي: هذه المناقب بشرى لنا... إلخ، وقوله: "**معشر الإسلام**" أي: معشر أهل الإسلام، "**إن لنا من العناية ركنًا غير منهدم**" أي: إن لنا جميع المسلمين من أجل العناية بنا في الأزل شريعة غير متغيرة بالنسخ، أماتنا الله على سُنَّته واتباع مِلَّته بمنِّه وفضله ورحمته.

118. لَمَّـــــا دَعـــــا اللهُ داعِينـــــا لِطَاعَتِـــــهِ

بِـــــأَكرَمِ الرُّسْـــــلِ كُنَّـــــا أَكْـــــرَمَ الأُمَـــــمِ

قوله: **"لَمَّا دعا الله..."** إلخ" أي: لَّما سمى الله...إلخ، والمعنى: لَّما سمَّى الله النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم الذي دعانا أي: طلبنا لطاعته تعالى **"بأكرم الرُّسل"** كنا معشر أمَّته أكرم الأمم؛ لأن أكرم الرُّسل لا يبعث إلا لأكرم الأمم، وفي التنزيل **[** كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ **]**(سورة آل عمران: من الآية 110)، والمعنى عليه: لما دعانا الله وهو داعينا لطاعته بواسطة أكرم الرسل، كُنَّا أكرم الأمم، والأول أقرب كما لا يخفى.

[جهاد النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وغزواته]

119. رَاعَــتْ قُلُــوبَ العِــدَى أَنبــاءُ بعْثَتِــهِ
كَنَبْــأَةٍ أَجْفَلَــتْ غُفْــلاً مــن الْغَــنَمِ

قوله: "**راعت... إلخ**" أي: أفزعت... إلخ، و"**قلوب**": أي أصحاب قلوب، ويحتمل أنه سمَّى الذوات بالقلوب، "**والعدا**" - بالكسر، والقصر-: جمع عدو، والمراد بهم: الكفار، والمراد "**بأنباء بعثته**": أخبارها التي صدرت من الكهان والأحبار، وغيرهم، كقولهم: إنه سيظهر دين يغلب كل دين، وقوله: "**كنبأةٍ**" أي: مثل نبأة، أي: زأرة الأسد، وجملة "**أجفلت**" أي: أفزعت، صفة لنبأة، و"**غفلاً**": جمع غافل، وقوله: "**من الغنم**" بيانٌ لـ "**غفلاً**" مشوبٌ بتبعيض، وإنما كانت غفلاً؛ لكونها راتعةً في ربيعها مشتغلةً في أكلها وشهواتها، فأجفلها ذلك الصوت، وفرقها.

120. مَــا زَالَ يَلْقَــاهُمُ فِــي كُــلِّ مُعْتَــرَكٍ
حَتَّــى حَكَــوْا بِالْقَنَــا لَحْمًــا علــى وَضَــمِ

قوله: "**ما زال... إلخ**" أي: لم ينفك صلى الله عليه وآله وسلم عن كونه يلقاهم بنفسه تارةً، وَبِخَيْله ورَجِله أخرى في كل معترَكٍ وقع بينه صلى الله عليه وآله وسلم وبينهم، و"**المعترك**"- بفتح الراء-: محل الاعتراك؛ أي: الازدحام للحرب. وقوله: "**حكوا**": شابهوا، وقوله: "**بالقنا**" أي: بطعن القنا، و"**القنا**": جمع قناة، وهي الرمح، و"**الوضم**" - بالصاد المعجمة-: ما يضع القصاب اللحم عليه معدًا لمن يأخذه، وهو المسمى بالطبلية، وقيل: إنه الحديد الذي يغرز فيه اللحم حين يشوى ليؤكل.

121. وَدُّوا الفِــرَارَ فكَــادُوا يَغْبِطُــونَ بِــهِ
أَشْــلاءَ شَــالتْ مَــعَ الْعِقْبَــانِ وَالــرَّخَمِ

قوله: "**ودوا الفرار... إلخ**" أي: تمنوا الهرب منه صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**فكادوا يغبطون به أشلاء شالت مع العقبان والرخم**" أي: فلتمنيهم ذلك قربوا من أن يغبطوا بذلك الفرار، "**أشلاء**": جمع شلو- بكسر الشين، وسكون اللام-، وهو العضو من اللحم، "**شالت**" أي: ارتفعت حال كونها مع العقبان، "**العقبان**": جمع عقاب، وهو نوع من الطير، ومن "**الرَّخَم**": جمع رَخْمَة، وهي نوع من الطير أيضًا، وإنما خصَّ هذين النوعين لعظم ارتفاعهم دون غيرهما، و"**الغبطة**": هي تمني الشخص أن يحصل له مثل ما حصل لغيره، فكأنهم يقولون: يا ليت لنا مثل أعضاء اللحم التي ارتفعت مع العقبان والرَّخم إلى منازلهم.

122. تَمْضِـــي اللَّيَـــالِي وَلاَ يَـــدْرُونَ عِـــدَّتَها
مـــا لَـــمْ تَكُـــنْ مـــن لَيـــالِى الأَشـــهُرِ الحُـــرُمِ

قوله: "**تمضي الليالي...** إلخ" أي: تمرُّ عليهم اللَّيالي بأيَّامها، والحال أنهم لا يعلمون عددها من شدَّة ما دخل في قلوبهم من الفزع بسبب جهاد النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين لهم، فيسكرون من الخوف وتذهب عقولهم، فلا يدرون عدَّة الأيام بلياليها، وقوله: "**ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرم**" أي: ما لم تكن تلك الليالي من ليالي الأشهر الحُرُم التي هي ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم ورجب، لإمساك النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين عن جهادهم في الأشهر الحُرُم في صدر الإسلام.

123. كَأَنَّمـــا الـــدِّينُ ضَـــيْفٌ حَـــلَّ سَـــاحَتَهُمْ
بكُـــلِّ قَـــرْمٍ إِلَـــى لَحْـــمِ العِـــدَا قَـــرِمِ

قوله: "**كأنما الدِّين...** إلخ"، أي: كأنما دين الإسلام ضيفٌ حلَّ ونزل ساحة الكفار، وقوله: "**بكل قرم**" - بفتح القاف، وسكون الراء- أي: مع كل شجاع، وقوله: "**إلى لحم العدا قَرِمٍ**"- بفتح القاف، وكسر الراء- أي: شديد الشهوة إلى لحم العدا للمسلمين.

124. يَجُـــرُّ بَحْـــرَ خَمِـــيسٍ فَـــوْقَ ســـابحَةٍ
يَرْمِـــي بمَـــوْجٍ مـــن الأَبطـــال مُلْـــتَطِمِ

قوله: "**يجر...** إلخ" أي: يستتبع هذا القَرْمُ- بفتح القاف، وسكون الراء- الذي هو الشجاع، "**يجر**" بمعنى: يستتبع، وقوله: "**بحر خميس**" أي: خميسٍ كالبحر في تموجه وإهلاكه الكفار، و"**الخميس**": هو الجيش العظيم، سُمي بذلك لأنه مُركَّب من خمس قوائم: مقدمة، وميمنة، وميسرة، وساقة، وقلب، وقوله: "**فوق سابحة**" أي: كائن فوق خيل سابحةٍ، أي: مسرعةٍ في طلب الكفار كالسَابح في البحر، والمراد بـــ "**الموج**": ما يصل إلى الكفار من الطعن والقتل وغيرهما، وقوله: "**من الأبطال**" أي: صادر ذلك الموج من الأبطال، و"**الأبطال**": جمع بطل، وهو الشجاع، وقوله: "**ملتطم**" صفة لموج، أي ملتطم بعضه ببعضٍ.

125. مـــــن كُـــــلِّ مُنْتَـــــدِبٍ للهِ مُحْتَسِـــــبِ
يَسْـــــطُو بِمُسْتأصِـــــلٍ للكُفْـــــرِ مُصْـــــطَلِمِ

قوله: "**من كل منتدب...** إلخ" أي: من كل مجيب، وقوله: "**محتسب**" أي: مدخر ثواب عمله عند الله، وقوله: "**يسطو**" أي: يصول، وقوله: "**بمستأصل للكفر**" أي: بآلة مستأصلة لأهل الكفر، أي: مزيل لهم من أصلهم، وقوله: "**مصطلم**" أي: مهلك لهم.

126. حتـــى غَـــدَتْ مِلَّـــةُ الإِسْـــلامِ وهِـــي بهِـــمْ
مـــــن بَعْـــــدِ غُرْبَتِهـــــا موصـــــولَةَ الـــــرَّحِمِ

قوله: "**حتى غدت...** إلخ" أي: وما زال هذا المنتدب يسطو بمستأصلٍ لأهل الكفر إلى أن غدت... إلخ، و"**غدت**" بمعنى: صارت، وقوله: "**مِلَّة الإسلام**" أي: ملَّة هي الإسلام، وقوله: "**هي بهم**" أي: وهي مصحوبة بالصَّحابة، والمراد "**بغربتها**": عدم شهرتها وقلَّة من ينتمي إليها، وقوله: "**موصولة الرحم**" أي: كثرة القيام بحقِّها بسبب كثرة من ينتمي إليها، وأشار بذلك إلى حديث مسلم **p** بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيْبًا **i** [1].

127. مَكْفولَـــــةً أَبَـــــدًا مِـــــنْهُمْ بخَيْـــــرِ أَبٍ
وخَيْـــــرِ بَعْـــــلٍ فَلَـــــمْ تَيْـــــتَمْ وَلَـــــمْ تَـــــئِمِ

قوله: "**مكفولةً...** إلخ" أي: محفوظة، وقوله: "**أبدًا**" أي: إلى الأبد، وقوله: "**منهم**" أي: من الكفار، وقوله: "**بخير أب وخير بعل**" هو النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه أشفق على أمته من الأب على أولاده، وأقوم بمصالحهم من البعل على زوجاته[2]، وقوله: "**فلم تيتم**" أي: من جهة الأب، وقوله: "**ولم تئم**" أي: من جهة البعل، يقال: يَتِم الولد إذا مات أبوه وهو صغير، ويقال: آمت المرأة تَئِيْم -كباعت تبيع-: إذا خلت من زوجها.

(1) رواه مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة، ورواه الإمام أحمد في (المسند)، والدارمي في (السنن) من حديث عبد الله بن مسعود، والطبراني في (المعجم الكبير) من حديث ابن سهل و صدي بن عجلان، وغيرهم

(2) قال الله تعالى: **[** النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ **]**(سورة الأحزاب: الآية 6)، وقال صلى الله عليه واله وسلم: **p** أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ **i** (رواه البخاري ومسلم).

128. هُـمُ الجِبـالُ فَسَـلْ عَـنْهُمْ مُصـادِمَهُمْ
مـاذا رأَى مِـنْهُمْ في كُـلِّ مُصْـطَدَمِ

قوله: "**هم الجبال...** إلخ" أي: هم كالجبال في الشمم والصلابة، وقوله: "**فسل عنهم مصادمهم**" أي: من صادمهم من أعدائهم، وقوله: "**ماذا رأى منهم**" أي: من الشدَّة، وقوله: "**في كل مصطدم**" - بفتح الدال - أي: الأماكن التي التقوا فيها مع أعدائهم.

129. وَسَـلْ حُنَيْنًـا وَسَـلْ بَـدْرًا وَسَـلْ أُحُـدًا
فُصُـولُ حَتْـفٍ لَهُـمْ أَدْهـى مـن الْـوَخَمِ

قوله: (**وسل حُنينا...** إلخ) أي: وسل زمن غزوة حُنين، وسل زمن غزوة بدر، وسل زمن غزوة أُحد، ومعنى قوله: "**فصول حتف لهم**" أي: أزمنة موتٍ للكفار، وقوله: "**أدهى من الوخم**" أي: أشد داهية عليهم لما يصيبهم فيها من الوخم الذي هو الوباء، وكانت غزوة حنين بعد فتح مكَّة سنة ثمانٍ، و"**حُنين**": اسم لوادٍ بين مكة والطائف، وفيه التقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون مع المشركين، فانهزم الكفار، وكانت غزوة بدر ليست بقصدٍ من المسلمين إليها في يوم الجمعة سنة ثنتين، و"**بدر**": اسم ماءٍ على طريق مكَّة، بينه وبين المدينة ثمانية وعشرون فرسخًا، وقتل فيها من صناديد قريش سبعون، وأُسر منهم سبعون، وكانت غزوة أُحد في شوال سنة ثلاث، و "**أُحد**": اسم لجبل بالمدينة، واستشهد فيها من المسلمين سبعون، منهم حمزة رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وقتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً، والحرب سجال، واحدة لنا، وواحدةٌ علينا.

130. المُصْـدِرِي الْبِـيضِ حُمْـرًا بَعْـدَمَا وَرَدَتْ
مِـنَ العِـدَى كُـلَّ مُسْـوَدٍّ مِـنَ اللِّمَـمِ

قوله: "**المصدري البيض...** إلخ" أي: أمدح المُصدري البيض... إلخ، و"**المصدرين**": جمع مُصْدِر- بضم الميم- مِن أصدر عن الماء: رجع، والمراد من "**البيض**": السيوف المصقولة، وقوله: "**حمرًا**" أي: من الدماء التي خالطتها، وقوله: "**بعد ما وردت**" أي: بعد ورودها، وقوله: "**من اللِّمم**" أي: الشعر المجاور شحمة الأذن، "**فاللِّمم**" - بكسر اللام -: جمع لِمَّة، وهي الشعر المذكور، فحاصل المعنى: أمدح الصحابة الذين أصدروا، أي أرجعوا السيوف البيض حال كونها حمراء من الدماء بعد ورودها كل شخص مسود اللمم حال كونه من العدا، وفي ذلك دليل على شجاعة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، حيث لا يرضون إلا بقتل سود اللمم من العدا، وهم الشُّبَّان في الغالب.

131. وَالكَـــاتِبينَ بسُـــمْرِ الخَـــطِّ مَـــا تَرَكَـــتْ
أَقْلامُهُـــمْ حَـــرْفَ جِسْـــمٍ غَيْـــرَ مُـــنْعَجِمِ

وقوله: "**والكاتبين بسمر الخط...** إلخ"، "**الكاتبين**": الطاعنين، والمراد "**بسمر الخط**": الرماح الخطية، و "**السُمر**": جمع أسمر، وهو الرمح، و"**الخط**": شجرة تتخذ منه تلك الرماح، وقيل: موضع باليمامة تجلب إليه تلك الرماح من الهند، وقوله: "**ما تركت أقلامهم حرف جسم غير منعجم**" أي: لم تترك أسنة رماحهم طرف جسم من أجسام الكفار غير مزال عجمته، بل أزالت عجمته - أي: خفاءه - بالطعن، فالمراد "**بأقلامهم**": أسنَّةُ رماحهم.

132. شَـــاكِي السِّـــلاحِ لَهُـــمْ سِـــيمَا تُمَيِّـــزُهُمْ
وَالْـــوَرْدُ يَمْتَـــازُ بالسِّـــيمَا عَـــنِ السَّـــلَمِ

قوله: "**شاكي السلاح...** إلخ" أي: حادِّيه، وقوله: "**لهم سيما تميزهم**" أي: لهم علامة تميزهم عن غيرهم، قال تعالى: [سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ](سورة الفتح: من الآية 29)، و "**السلم**": جمع سَلَمَة، وهو شجر من العِضاه يُدبَغ به، والمعنى: والورد يتميز من السَّلم بالعلامة من طيب الرائحة وحسن الخلقة وبهاء المنظر، فإنَّ السلم ضد ذلم، فالورد والسلم وإن اشتركا في أن كلاً شجر مورق ذو شوك إلا أن بينهما فرقًا ظاهر لكل ذي بصر، وكذلك الصحابة وغيرهم، فإنهما وإن اشتركا في أن كلاً ذو سلاح إلا أن بينهما فرقًا ظاهرًا لكل ذي بصيرة.

133. تُهْـــدِي إليـــكَ رِيَـــاحُ النَّصْـــرِ نَشْـــرَهُمُ
فَتَحْسِـــبُ الزَّهْـــرَ فِي الأَكمَـــامِ كُـــلَّ كَمِـــي

قوله: "**تُهدي إليك**" أي: ترسل إليك الرياح التي حصل بها النصر خبرهم على وجه الهدية، فـ "**تُهدي**" بمعنى: ترسل، والمراد "**برياح النصر**": الرياح التي حصل بها النصر، والمراد "**بالنشر**": الخبر السار، وإن كان في الأصل: الرائحة الطيبة، و"**الزهر**": نَوْر الشجر، و"**الأكمام**" جمع: كم؛ وهو: غلاف النور، و"**الكَمِيُّ**": الشجاع في سلاحه.

134. كَـــأَنَّهُمْ فِي ظُهُـــورِ الْخَيْـــلِ نَبْـــتُ رُبًـــا
مِـــنْ شِـــدَّةِ الحَـــزْمِ لا مِـــنْ شِـــدَّةِ الحُـــزُمِ

قوله: "**كأنهم في ظهور الخيل...** إلخ"، أي: كأن الصحابة حال كونهم على ظهور الخيل نبت رُبا في الاستقرار والثبوت، و"**الرُبا**": جمع ربوة، وهي ما ارتفع من الأرض، و"**نبتها**" يكون أثبت من غيره لطول عروقه حتى يصل إلى الماء، ويكون

أحسن من غيره؛ لأنه لا يستقر عليه الماء فيأخذ حظَّه من الشمس والرياح، وقوله:**"من شدة الحَزْم"** أي: من قوة جودة رأيهم وتدبيرهم، وقوله: **"لا من شدة الحُزُم"** أي: لا من ربط الحُزُم - جمع حزم- التي يربط بها السرج أو غيره على ظهر الدابة.

135. طَـارَتْ قُلُـوبُ العِـدا مِـنْ بَأسِـهِمْ فَرَقًـا
فَمَـا تُفَـرِّقُ بَـيْنَ الْـبَهْمِ وَالْـبُهَمِ

قوله: **"طارت قلوب العِدا..."** إلخ" أي: اضطربت قلوب العدا... إلخ، **"طارت"** بمعنى: اضطربت، وقوله: **"من بأسهم"** أي: من شدتهم وقوتهم في الحرب، وقوله:**"فرقًا"** أي: فزعًا، و**"البَهْم"**: جمع بهمة، وهي السخلة، وهي أولاد الضأن، و**"البُهَم"** - بضم الباء الموحدة، وفتح الهاء-: الشجعان.

136. ومَـن تَكُـنْ بِرَسُـولِ اللهِ نُصْـرَتُهُ
إن تَلْقَـهُ الأُسْـدُ في آجَامِهَـا تَجِـمِ

قوله: **"ومن تكن برسول الله..."** إلخ"، لما ذكر أنه حصل للعدو الفزعُ الشديد من بأس الصحابة، أشار إلى ذلك إنما هو بِسرِّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قوله: **"ومن تكن برسول الله"**: ولا تكون النُصرة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا باتباع سنته وترك ما كان على خلاف شريعته، وذلك هو تقوى الله، والحامل عليها خوف الله، ومن خاف الله خاف منه كل شيء، حتى **"الأسْدُ في آجامها"**، **"الأسْدُ"**: جمع أسد، وهو الحيوان المعروف، والمراد بـ **"الأسْدُ"**: الشجعان، و**"آجامها"**: جمع أجمة، وهي الغابات أو الحصون، **"تجم"**- بكسر الجيم- بمعنى: تسكت من هيبته.

137. وَلَـنْ تَـرَى مِـنْ وَلِـيٍّ غَيْـرِ مُنْتَصِـرٍ
بِـهِ ولا مِـن عَـدُوٍّ غَيْـرِ مُنْقَصِـمِ

قوله: **"ولن ترى من وليٍّ..."** إلخ"، والمراد **"بالولي"**: من آمن به صلى الله عليه وآله وسلم وكان على هديه، و**"العدوُّ"**: ضده، وقوله: **"به"** أي: برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، و**"القَصْم"**- بالقاف -: القطعُ مع الإبانة.

138. أَحَـــــلَّ أُمَّتَـــــهُ فِي حِـــــرْزِ مِلَّتِـــــهِ
كَاللَّيْـــثِ حَـــلَّ مَـــعَ الأَشْـــبَالِ فِي أَجَـــمِ

قوله: "**أحلَّ أمته...** إلخ" أي: أنزلها؛ لأنه أحلَّ أمته... إلخ، وقوله: "**في حِرزِ ملَّته**" أي: في ملَّته الشبيهة بالحرز، "**حرز**" أي: الحفظ، وإنما كانت "**مِلَّتُه**" صلى الله عليه وآله وسلم شبيهة بـــ "**الحرز**"؛ لأنها تحفظ من اتبعها من نار الكفر، وقوله: "**كالليث حلَّ مع الأشبال في أَجَم**" أي: فالنبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم حلَّ مع أمته في مِلَّته كالليث حلَّ مع أشباله في الآجم، و"**الليث**" هو: الأسد، و"**الأشبال**" هي: أولاده، "**والأجم**": جمع أجَمَة، وهي الغابة، أي: الشجر الملتف، وحاصل المعنى: أنزل النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم أمته في الحفظ، وذلك بنور الإسلام، كما يترل الليث مع أشباله فيمنحهم الحفظ والأمان، وهذا فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾(سورة التوبة: الآية 128).

139. كَـــمْ جَـــدَّلَتْ كَلِمـــاتُ اللهِ مـــن جَـــدِلٍ
فِيـــهِ وَكَـــمْ خَصَـــمَ البُرهَـــانُ مِـــنْ خَصِـــمِ

قوله: "**كم جدَّلت كلمات الله...** إلخ"، "**كم**": خبرية بمعنى كثيرًا، و"**جدَّلت**" أي: قَطَعت وأزالت جداله، و"**كلمات الله**": هي القرآن، و"**الجَدِل**" – بكسر الدَّال-: اسم فاعل من جدل جدالاً؛ أي: أحكم الخصومة إحكامًا، وقوله: "**فيه**" أي: في أمره صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**وكم خصم البرهان من خصم**" أي: وكثيرًا ما خصم البرهان- الذي هو الدليل القاطع- من خَصِم - بكسر الصاد -، وهو شديد الخصومة، وحاصل معنى البيت: كثيرًا ما أزال القرآن جدال المجادِل في أمره صلى الله عليه وآله وسلم، وكثيرًا ما أزال الدليل القاطع خصومة شديد الخصومة في أمره صلى الله عليه وآله وسلم، والأول إشارة إلى ما وقع في القرآن من جواب المعاندين السَّائلين له صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ذلك ما نُقل من أن اليهود قالوا لقريش: سلوه عن الرُّوح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين[1]، والثاني إشارةٌ على ما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم من الآيات حين سألوه آية على رسالته، كانشقاق القمر وغيره.

(1) السؤال عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين، ذكره البيهقي في (دلائل النبوة)، وابن هشام في (السيرة النبوية).

140. كَفَـــاكَ بِـــالْعِلْمِ فِي الأُمِّـــيِّ مُعْجِـــزَةً

فِـــي الجَاهِلِيَّـــةِ والتَّأْدِيـــبِ فِـــي اليُـــتُمِ

قوله: **"كفاك بالعلم...** إلخ" أي: كفاك العلم، وقوله: **"في الأُمِّيِّ"** أي: في النبيِّ الأُمِّيِّ، وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب، نسبةً للأم، كأنه على الهيئة التي نزل عليها من أُمِّه، وقوله: **"في الجاهلية"** أي: الزمن الذي لا علم فيه، وقوله: **"والتأديب في اليُتُم"** أي: وكفاك بالتأديب في اليُتُم معجزة؛ لأن شأن اليتيم وهو الصغير الذي لا أب له أن لا يكون فيه من الأدب ما يكون من غيره؛ فإن الأب غالبًا يهتم بتأديب ابنه، ويسعى في تكميله باكتساب الصفات الحميدة، بخلاف غير الأب، وكان صلى الله عليه وآله وسلم مؤدبًا بأحسن الأخلاق على خلاف العادة في اليتيم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: **p** أَدَّبَنِي رَبِّي تَأْدِيبًا حَسَنًا إِذْ قَالَ: **[** خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ **]**، فَلَمَّا قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ قَالَ: **[** إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ **]** **i** [1].

(1) رواه السمعاني، والإمام القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن).

[التَّوسُّلُ والتَّشفُّعُ]

141. خَدَمْتُـــــــهُ بمَــــــدِيحٍ أَسْـــــــتَقيلُ بـــــهِ
ذُنُـــوبَ عُمْـــرٍ مَضَـــى فِـــي الشِّـــعْرِ والخِـــدَمِ

قوله: "**خدمته بمديح**... إلخ"، أي: خدمته صلى الله عليه وآله وسلم بما تقدَّم من المدح، أطلب من الله أن يقيلني بسبب هذا المديح ذنوب عمرٍ مضى في الشعر مدحًا لأبناء الدنيا.

142. إذْ قَلَّـــــدَانِي مــــا تُخْشَــــى عَوَاقِبُــــهُ
كَــــأَنَّنِي بِهِمَــــا هَــــدْيٌ مِــــنَ الــــنَّعَمِ

قوله: "**إذا قَّلداني**... إلخ" أي: لأنهما قَّلداني... إلخ، فالضمير في قلَّداني للشَّعر والخِدَم، وقوله: "**ما تُخشى عواقبه**" أي: آثمًا تخشى عواقبها، والمراد بعواقبها: أنواع العذاب، وقوله: "**كأنني بهما هديٌ من النَّعَم**" أي: كأنني بسبب الشعر والخدم هديٌ من النعم التي هي الإبل والبقر والغنم، ومن شأن الهَدي أن يُقْلد بجعل شيء في عنقه من نعلٍ ونحوه؛ ليعلم أنَّه هدي.

143. أطَعْــتُ غَــيَّ الصِّــبَا في الحَــالَتيْن وَمَــا
حَصَـــــلْتُ إلاَّ علــــى الآثــــامِ وَالنَّــــدَمِ

قوله: "**الغيُّ**": ضدُّ الهُدى، وأضيف للصِّبا؛ لأنه يدعو إليه، فإنه زمن الجهل والبطالة، وقوله: "**في الحالتين**" أي: حالتي الشعر والخدم، وقوله: "**وما حصلتُ إلا على الآثام والنَّدم**" أي: وما حصلت منهما إلا على الآثام التي صدرت منِّي، وعلى الندم على تلك الآثام.

144. فَيَــا خَسَــــارَةَ نَفْــسٍ في تِجارَتِهَــا
لَــمْ تَشْــتَرِ الــدِّينَ بالــدُّنيا وَلَــمْ تَسُــمِ

قوله: "**فيا خسارة نفسٍ**...إلخ"، هذا البيت تحقيقٌ للندم، فكأنه يقول: يا خسارة نفسٍ موصوفةٍ بما ذكر، وقوله: "**في تجارتها**" متعلقٌ بخسارتها، وقوله: "**لم تشتر الدِّين بالدنيا**" أي: لم تأخذ الدِّين بدل الدنيا، بل عدلت عن العظيم الباقي إلى الخسيس الفاني، وقوله: "**لم تسم**"- بفتح التاء، وضم السين المهملة- أي: ولم تتعرض لأخذ الدِّين بدل الدنيا، وكأن الناظم عنى نفسه فنادى عليها بالخسارة، حيث اتبعت الشعر والخدم لبناء الدنيا، ولو صحبها التوفيق لتركت ذلك واشتغلت بالدِّين.

145. وَمَـــنْ يَبِـــعْ آجِـــلاً مِنْـــهُ بعَاجِلِـــهِ
يَـــبِن لَـــهُ الغَـــبْنُ فِي بَيْـــعٍ وفِي سَـــلَمِ

قوله: "**ومن بيع آجلاً منه...** إلخ"، هذا البيت تتميمٌ لتحقيق الندم وتبكيت النفس؛ لأن فيه توعدًا بالغبن، والمراد بـــ "**الآجل**": الثواب الذي يكون في الآخرة المحققة الباقية، وبـــ "**العاجل**": الذي يأخذه من الدنيا الذاهبة الفانية، والظاهر أن الضمير في "**منه**" راجع للدِّين في البيت قبله، وقوله: "**يبن له الغبن**" أي: يُظهر له الخِداع، وقوله: "**في بيع وفي سلم**" كل منهما متعلق بالغبن، و"**السلم**": السلف، والمعنى: يظهر له الغبن في حالة البيع وفي السلف أيضًا، وحاصل المعنى: أن من يؤثر دنياه على آخرته خاب وخسر، سواء جنى من الدنيا شيئًا أو لم يجنِ؛ لأن الدنيا متاع الغرور.

146. إِنْ آتِ ذَنْبًـــا فَمَـــا عَهْـــدِي بِمُنْـــتَقِضٍ
مِـــنَ النَّبِـــيِّ وَلاَ حَبْلِـــي بِمُنْصَـــرِمِ

قوله: "**إن آتِ ذنبًا...** إلخ"، هذا البيت تأنيسٌ للنفس، وترجٍّ لها في رحمة الله تعالى، و"**آت**" أصله: أأت، بهمزتين، قلبت الثانية ألفًا فصار آت بالمد، وقوله: "**فما عهدي بمنتقض من النبيِّ**" أي: فما إيماني بمنقطع عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن الذنب لا ينقض الإيمان، وقوله: "**ولا حبلي بمنصرم**" أي: ولا وصلي بمنقطع من النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم.

147. فَـــإِنَّ لِـــي ذِمَّـــةً مِنْـــهُ بِتَسْـــمِيَتِي
مُحَمَّـــدًا وَهْـــوَ أَوْفَـــى الْخَلْـــقِ بِالـــذِّمَمِ

قوله: "**فإن لي ذمَّةً...** إلخ"، هذا البيت تعليلٌ للبيت قبله، ووجه ذلك: أن اختياره التسمية باسمه صلى الله عليه وآله وسلم دليلٌ على محبته فيه؛ فإنه لا يتسمى بالاسم إلا من أحب مُسماه، وأما من يكرهه فلا يتسمى به، وقوله: "**وهو أوفي الخلق بالذمم**" أي: وهو صلى الله عليه وآله وسلم أشدَّهم وفاءً بها، فيقول بحقِّها بأن يشفع لأهلها؛ لعظم جاهه، وعلوِّ مكانته عند ربِّه، وفي كلام المصنِّف ترغيبٌ في التسمية باسمه صلى الله عليه وآله وسلم، وقد جاء في ذلك أحاديث، فعن أبي أمامة مرفوعًا: **p** مَنْ وُلِدَ لَهُ مَوْلُوْدٌ فَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا تَبَرُّكًا؛ كَانَ هُوَ وَمَوْلُوْدُهُ فِي الْجَنَّةِ **i** [1](رواه صاحب الفردوس)، وبالجملة: فالتسمية باسمه صلى الله عليه وآله وسلم أمرٌ مندوب إليه، نسأل الله أن يُنظمَنَا في سلك محبته بمنِّه وفضله ورحمته.

(1) رواه ابن الجوزي في (الموضوعات)، والعجلوني في (كشف الخفاء)، والمناوي في (فيض القدير)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق)، والسيوطي في (الآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعه) وقال: هذا مثل حديث ورد في الباب، وإسناده حسن.

148. إِنْ لَـمْ يَكُـنْ فِـي مَعَـادِي آخِـذًا بِيَـدِي
فَضْـــلاً وإلاَّ فَقُـــلْ يـــا زَلَّـــةَ القَـــدَمِ

قوله: "**إن لم تكن في معادي...** إلخ" أي: إن لم يكن صلى الله عليه وآله وسلم في يوم عودي إلى الله تعالى آخذًا بيدي بأن يشفع لي، حال كون ذلك فضلاً منه لا لسابقةٍ مِنِّي تقتضي ذلك، "**وإلاَّ فقل: يا زلَّة القدم**"، وهو كناية عن سوء الحال والوقوع في الشدَّة، و"**إلا**" أي: وإلا لم يكن في ذلك اليوم آخذًا بيدي فقل: يا زلَّة القدم.

149. حَاشَـــاهُ أَن يُحْـــرِمَ الراجِـــي مَكارِمَـــهُ
أو يَرْجِـــعَ الجَـــارُ مِنْـــهُ غيْـــرَ مُحْتَـــرَمِ

قوله: "**حاشاه أن يحرم...** إلخ"، هذا البيت لزيادة تسكين النفس من خوفها، و"**حاشاه**" هنا: اسم بمعنى المحاشاة، وهي: التنزيه، وقوله: "**أن يُحرم الراجي مكارمه**" أي: من أن يحرم النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم الرَّاجي منه مكارمه، و"**المكارم**": جمع مكرمة، والمراد منها: الشفاعة، وقوله: "**أو يرجع الجار منه غير محترم**" فالمعنى: وحاشاه من أن يرجع "**الجار منه**" أي: المستجير به الداخل في الجوار، أي: الداخل تحت لوائه صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة فيصبح"**غير محترم**" بحرمانه من شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم، بل يرجع محترمًا، جعلنا الله من أهل شفاعته أجمعين.

150. وَمُنْـــذُ أَلْزَمْـــتُ أَفْكَـــارِي مَدَائِحَـــهُ
وَجَدْتُـــــهُ لِخَلاصِـــــي خَيْـــــرَ مُلْتَـــــزِمِ

قوله: "**ومنذ ألزمت أفكاري...** إلخ"، هذا البيت استدلالٌ على قوة رجائه، وأنه لا يخيب في ظنِّه، فكأنه قال: إنما قوي رجائي؛ لأني منذ ألزمت أفكاري... إلخ، "**الأفكار**": جمع فكر، وهو حركة النفس في المعقولات، و"**المدائح**": جمع مديح، وهو الثناء الحسن، وإنما كان صلى الله عيه وآله وسلم خير مُلتَزم لخلاصه من الشدائد؛ لأنه وفيٌّ بخلاصه منها على أحسن الوجوه وأتمِّها، وأشار المصنِّف بذلك إلى الدَّاء الذي كان أصابه، وهو داء الفالج - الشلل- والعياذ بالله تعالى منه، وكان هو السبب في إنشاء هذه القصيدة، فإنه لما أُصيب به عملها، فرأى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في النوَّم، ومسح بيده الكريمة عليه، فعوفي.

151. ولــنْ يَفــوتَ الغِنَــى مِنْــهُ يــدًا تَرِبَــتْ
إنّ الحيَــا يُنبــتُ الأَزهَــارَ فِــي الأُكَــمِ

قوله: "**الغنى منه**": المقصود الإكتفاء بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والضمير في "**منه**" عائدٌ على النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، و"**تربت**"- بكسر الراء- أي: التصقت بالتراب، لكونها مفتقرة افتقارًا حسيًّا بأن ضيَّعت ما كان فيها من الأموال، أو معنويًا بأن ضيعت ما كان لها من الثواب لاقترافها المعاصي، و"**الحيا**": المطر، ينبت "**الأزهار**": جمع زهرة، في "**الأُكُم**" - بضمتين- جمع: أكمة، و"**الأكمة**" هي: الرَّبوة؛ أي: المحلُّ المرتفع من الأرض، وهو قليل النبات لعدم استقرار الماء عليه لعلوه، كذلك صلى الله عليه وآله وسلم ينيل الغنى من ليس مظنة الغنى.

152. وَلَــمْ أُرِدْ زَهْــرَةَ الــدُّنيا الــتي اقْتَطَفَــتْ
يَــدَا زُهَيْــرٍ بِمَــا أَثْنَــى عَلَــى هَــرِمِ

قوله: "**ولم أرد زهرة الدنيا...**إلخ"، لَّما كان قوله: "**ولن يفوت الغنى...**إلخ" يوهم التعريض بطلب شيء من حطام الدنيا، دفع هذا التوهم بقوله: "**ولم أرد زهرة...** إلخ" أي: وإنما أردت الغنى منه في الآخرة بالشفاعة في المذنبين، والمراد "**بزهرة الدنيا**": مستلذاتها من المال وغيره، والمراد "**بزهير**" الشاعر المشهور، وهو ابن أبي سُلمى، كان زهير من الشعراء المقدَّمين على سائر الشعراء في الجاهلية، وقوله: "**بما أثنى على هرم**" أي: بالمديح الذي أثنى به على هرم بن سنان، وكان يصل زهير بالصِّلات الجزيلة الخارجة عن العادة.

[المَناجاةُ والتَّضرُّعُ]

153. يـا أَكْـرَمَ الرُّسْـلِ مَـا لِـي مَـنْ أَلُـوذُ بـهِ
سِـــواكَ عِنْـــدَ حُلُـــولِ الحَـــادِثِ العَمَـــمِ

قوله: "**يا أكرم الرسل...** إلخ"، لَمَّا مدح النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم على سبيل الإخبار عن الغائب، أقبل بالخطاب عليه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "**يا أكرم الرُّسْل**"، وفي بعض النسخ: "**يا أكرم الخلق**"، ولكونه صلى الله عليه وآله وسلم أكرم الرُّسُل وأكرم الخلق؛ اختص بالشفاعة العظمى، وقوله: "**ما لي من ألوذ به سواك**" أي: ليس لي أحد ألتجيء إليه غيرك، وقوله: "**عند حلول الحادث العمم**" أي: عند نزول الحادث العامِّ، أي: الشامل لجميع الخلق، والمراد بذلك الحادث: هول يوم القيامة، فإن كلاً من الرُّسل يقول حينئذ: " نَفْسِي نَفْسِي"، والنبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **p** أُمَّتِي أُمَّتِي **i** [1].

154. ولَـــنْ يَضِـــيقَ رَسُـــولَ اللهِ جاهُـــكَ بـــي
إِذَا الكَـــــرِيمُ تَحَلَّـــــى باسْـــــمِ مُّنْـــــتَقِمِ

قوله: "**ولن يضيق رسول الله...** إلخ" أي: بل هو رحبٌ واسعٌ، يسعني ويسعُ كل عاصٍ مثلي، فجُد عليَّ بالشفاعة لتنقذني ممَّا استحقه من العقاب، والمراد من "**الجاه**": القدر والمنزلة، وهو مأخوذٌ من الوجاهة، وهي رفعة القدر وسعة المرتبة، وقوله: "**بي**" أي: عَنِّي، وقوله: "**إذا الكريم تحلى باسم منتقم**" أي: وقت كون المولى اتصف "**باسم**" هو "**منتقم**"، واتصافه بذلك عند انتقامه بالفعل من العُصاة، وذلك الوقت هو يوم القيامة، و"**تحلى**" بمعنى: اتَّصف.

155. فَـــإِنَّ مِـــنْ جُـــودِكَ الـــدُّنْيا وَضَـــرَّتَهَا
وَمِـــنْ عُلُومِـــكَ عِلْـــمَ اللَّـــوْحِ وَالْقَلَـــمِ

قوله: "**فإن من جودك الدنيا...** إلخ"، هذا البيت تعليلٌ للبيت قبله، كأنه قال: وإنَّما كان جاهك يا رسول الله لا يضيق بي، بل يسعني وغيري من العصاة؛ لأن من جودك الدنيا... إلخ، والمراد من "**الدُّنيا**": ما قابل الأخرى، ولذلك جعلها الناظم "**ضَرَّتَهَا**"، وفي الكلام تقدير مضاف: أي: خيري "**الدُّنيا**" و"**ضَرَّتَهَا**" التي هي الآخرة، فَمِن خير الدنيا هدايته صلى الله عليه وآله وسلم للناس، ومن خير الآخرة شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم فيهم.

(1) رواه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك.

وقوله: **"ومن علومك علم اللوح والقلم"** المراد: بعلومه صلى الله عليه وآله وسلم: المعلومات التي أطلعه الله عليها، والمراد **"بعلم اللوح والقلم"**: المعلومات التي كتبها القلم في اللوح بأمر الله تعالى، فإنه ورد p إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟، قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"[1].

واستشكل جعل علم اللوح والقلم بعض علومه صلى الله عليه وآله وسلم بأن من جملة علم اللوح والقلم الأمور الخمسة المذكورة في آخر سورة لقمان: [إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ](سورة لقمان: من الآية 34)، وأجيب بعدم تسليم أن هذه الأمور الخمسة مِمَا كتب القلم في اللوح، وإلا لاطَّلع عليها مَن شأنه أن يطلع على اللوح كبعض الملائكة المقرَّبين، وعلى تسليم أنها مما كتب القلم في اللوح فالمراد: أن بعض علومه صلى الله عليه وآله وسلم علم اللوح والقلم الذي يطلع عليه المخلوق، فخرجت هذه الأمور الخمسة على أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يخرج من الدنيا إلا بعد أن علَّمه الله تعالى بهذه الأمور.

156. يَــا نَفْــسُ لا تَقْنَطِــي مِــنْ زَلَّــةٍ عَظُمَــتْ

إِنَّ الْكَبَــــــائِرَ فِي الْغُفْــــــرَانِ كَــــــاللَّمَمِ

قوله: **"يا نفس لا تقنطي..** إلخ"، لَمَّا خاف الناظم على نفسه القنوط من رحمة الله تعالى بسبب شدة الخوف، أقبل عليها يخاطبها بتحقيق رجائه، وأصل قوله: **"يا نفس"**: **"يا نفسي"**، وقوله: **"لا تقنطي"** أي: لا تيأسي، وقوله: **"من زلة عظمت"** أي: من أجل زلة كبرت، والأصل: من غفران زلة عظمت، و**"الزَّلَّة"** - بفتح الزاي، وتشديد اللام-: الذنب، وقوله: **"إن الكبائر في الغفران كاللمم"** أي: إن الذنوب العِظام التي ارتكبتيها أيَّتها النفس في جانب الغفران - أي: بالنِّسبة له- كصغار الذُّنوب، فالكبائر هي: الذنوب العِظام، و**"اللَّمم"** – بفتح اللَّام المشدَّدة، وفتح الميم-: صغار الذنوب، وفي قول الناظم: ردٌّ على من زعم أن الكبائر ليست كالصَّغائر، كالمعتزلة، فإنهم يقولون بأنَّ الكبائر لا تُغفر، بل مرتكبها يُخلَّد في النار، والحقُّ مذهب أهل السُّنة: أن الكبائر كالصغائر في الغفران، وهو الموافق للقرآن[2] وللسُنَّة وللدليل العقلي؛ لأنه تعالى لا يجب عليه ثواب، ولا يتحتَّم عليه عقاب، فالثواب من فضله، والعقاب من عدله.

(1) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت، وغيرهم.

(2) قوله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ](سورة الزمر: من الآية 53).

157. لَعَـــلَّ رَحْمَـــةَ رَبِّـــي حِـــينَ يَقْسِـــمُهَا
تَـــأْتِي عَلَـــى حَسَـــبِ العِصْـــيَانِ فِي القِسَـــمِ

قوله: "**لعلَّ رحمة ربي...** إلخ" أي: أرجو أن تكون رحمة ربي تأتي في القِسَم حين يقسمها بين العُصاة على قدر عصيانهم، فَمَن حَمل من العِصيان حملاً صغيرًا كان ما ينالُه من الرَّحمة شيئًا صغيرًا، والمراد: الرَّحمة التي تنال العصاةَ، لا الرَّحمة العامة التي تنال المطيع أيضًا، فلا يقال: إذا قُسِمَت الرَحمة بحسب العصيان لم يبق للمُطيع منها حظٌ.

158. يَـــا رَبِّ وَاجْعَـــلْ رَجَـــائِي غَيْـــرَ مُـــنْعَكِسٍ
لَـــدَيْكَ واجْعَـــلْ حِســـابي غَيْـــرَ مُنْخَـــرِمِ

قوله: "**يا ربِّ واجعل رجائي...** إلخ"، لَمَّا اشتملت هذه القصيدة على أنواع التغزل، وتوبيخ النفس، والوعظ، ومدحه صلى الله عليه وآله وسلم، وذكر بعض معجزاته، ومدح القران، ومدح الصحابة، وذمِّ الكفار، والإقرار بالذنب، ختمها بالدعاء، ثم بالصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**يا ربِّ**" أصله: يا ربي، وقوله: "**واجعل رجائي**" أي: اجعل رجائي للرحمة، "**غير منعكس**": أي غير خائب، وقوله: "**لديك**" أي: عندك، وقوله: "**اجعل حسابي غير منخرم**" أي: اجعل ما حسبته - أي: ظننته- من الجميل فيك غير ناقص، وفي الحديث حكاية عن الله تعالى: **p** أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ **i** [1].

159. وَالْطُـــفْ بِعَبْـــدِكَ فِي الـــدَّارَيْنِ إِنَّ لَـــهُ
صَـــبْرًا مَتَـــى تَدْعُـــهُ الأَهْـــوالُ يَنْهَـــزِمِ

قوله: "**والطف بعبدك...** إلخ" معنى "**الطف**": ارفق، وعنى بالعبد نفسه، واختار الوصف بالعبوديَّة لما فيها من غاية الذِّلَّة والخضوع، وذلك مناسب لمقام الدعاء، وقوله: "**في الدارين**" أي: داري الدُّنيا والآخرة، أي: فيما قدرت عليه فيهما، ثم علَّل ذلك بقوله: "**إن له صبرًا**" أي: إنَّ لعبدك صبرًا لا يثبت، بل "**متى تدعه الأهوال ينهزم**" أمامها، فيصير العبد بلا صبرٍ، فيهلك، وباللُّطف يندفع الهلاك.

(1) رواه ابن حبان في (الصحيح)، والطبراني في (المعجم الكبير)، وأبو نعيم (الحلية)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) كلهم من حديث واثلة بن الأسقع، ورواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة وفيه زيادة.

160. وائْـــذَنْ لِسُـــحْبِ صَـــلاَةٍ مِنْـــكَ دَائِمَـــةٍ
عَلَـــــى النَّبِـــــيِّ بِمُنْهَـــــلٍ ومُنْسَـــــجِمِ

قوله: "**وائْذَنْ لسحب صلاةٍ...** إلخ"، لا يخفى أن قوله: "**ائذن**": فعل دعاء، والإذن في حقِّه تعالى بمعنى: الإباحة، و"**السُّحْب**": جمع سحاب الذي هو الغيم، وإضافة سُحب للصلاة من إضافة المشبَّه به للمشبَّه، أي: للصلاة الشبيهة بالسحب في أن كلاً رحمةٌ، وقوله: "**على النبيِّ**" أي: سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: "**بمُنهلٍ ومنسجم**" التقدير: بمطر منهلٍ، ومطرٍ منسجم، و"**المُنهَل**": المنصبُّ لشدَّته، و"**المُنسجم**": السَّائل لعدم شَدَّته.

161. مَـــا رَنَّحَـــتْ عَـــذَبَاتِ الْبَـــانِ رِيـــحُ صَـــبًا
وَأَطْـــرَبَ الْعِـــيسَ حَـــادِي العِـــيسِ بِـــالنَّغَمِ

قوله: "**ما رنحت عذبات اللبان...** إلخ" أي: مُدَّة ترنيح عذبات البان... إلخ، و"**الترنيح**": التمييل، و"**عذبات البان**": أغصانه، و"**البان**": شجر معروف طيب الرائحة، وقوله: "**ريحُ صَبا**": الريح الشرقية التي تَهبُّ صوب باب الكعبة، وإنما سميت بذلك لأنها تصبو أي تميل إليها، وأصول الرياح أربعة الأولى: الصَبا، والثانية: الدبر وهي الريح الغربية، والثالثة: الشمال- بفتح الشين-، والرابعة: الجنوب - بفتح الجيم- وهي الريح القبلية، وقوله: "**وأطرب العيس...** إلخ" أي: ومدة إطراب العيس... إلخ، و"**الإطراب**": إحداث الطرب، وهو خِفَّة تنشأ عن سرور، و"**العِيس**" - بكسر العين-: هي إبل بيض يخالطها شُقرَة أو حُمرة شديدة، وهي من كرام الإبل، المراد "**بحادي العيس**": سائقها، وقوله: "**بالنغم**" - بفتح النون -: الصوت الحسن.

وفي هذا البيت والذي قبله براعة الختام، وتسمى حُسن المقطع، وحُسن الخاتمة، وهي في الشعر عبارةٌ عن ختم القصيدة بأجود بيت يحسن السكوت عليه؛ لأنه آخر ما يبقى في الأسماع، وربما حُفظ دون غيره؛ لقرب العهد به.

قال الشيخ الباجوري رحمه الله تعالى: ويوجد في بعض النسخ أبيات لم يشرح عليها أحدٌ من الشارحين، لكن لا بأس بها وهي:

ثُـــمَّ الرِّضَـــا عَـــن أَبِـــي بَكْـــرٍ وعَـــنْ عُمَـــرٍ
وعَـــن عَلِـــيٍّ وعَـــنْ عُثْمَـــانَ ذي الكَـــرَمِ
والآلِ وَالصَّـــحْبِ ثُـــمَّ التَـــابعينَ فَهُـــمْ
أَهـــلُ التُّقَـــى وَالنَّقَـــا والحِلْـــمِ والكَـــرَمِ

يـــا رَبِّ بالمُصـــــطَفَى بَلِّـــغْ مَقاصـــــدنَا
واغْفِـرْ لنــا مَـا مضَــى يـا واسـعَ الكَــرَمِ

بجـــاهِ مـــن بَيْتُـــهُ في طِيبَـــةٍ حَــــرَمٌ
واسْـــمُهُ قَسَـــمٌ مـــن أَعظَـــمِ القْسَـــمِ

وهَـــذِهِ بُـــرْدَةُ المُخْتـــارِ قَـــدْ خُتِمَـــتْ
والحَمْـــــــدُ للهِ في بـــــــدْءٍ وفي خَـــــــتَمِ

أبياتُهَـــا قـــد أَتــتْ ســتين مــعْ مِائـــةٍ
فَـــرِّجْ بهـــا كَربنَـــا يـــا واسِـــعَ الكَــرَمِ

فَرَّجَ اللهُ الكربَ عنَّا وعن سائر المسلمين بجاه سَيِّد المرسلين وآله وصحبه الطيبين الطاهرين

والحمد الله ربِّ العالمين

تصحيح لأبيات من قصيدة البردة
للحافظ المجتهد سيدي عبد الله بن الصديق الغماري الحسني
رحمه الله تعالى ونفعنا بعلومه

يقول رحمه الله تعالى: هذه القصيدة من نظم الأديب الشاعر أبي عبد الله محمَّد بن سعيد البوصيري - بكسر الصاد – الصَّنهاجي، وهي من أبدع ما نُظم في المديح النبوي، ضمَّت جملاً من السيرة، وطائفة من المعجزات والفضائل النبوية، في أسلوب عذب رائق، وقد أقبل الناس عليها منذ أنشأها ناظمها إقبالاً كبيرًا، فلا يحصى كم من شارحٍ لها ومخمِّسٍ لأبياتها وناظمٍ على منهاجها.

وانتقده كثيرون لأبيات منها، رأوا فيها غلوًا ومبالغة، لكنهم بالغوا في الانتقاد وغلوا فيه أيضًا، حتى زعموا أنها تشتمل على شرك صريح.

وأنا أريد أن أتكلم في هذه المقالة على الأبيات المنتقدة، وهي في نظري أربعة، وأبيِّن ما يجاب به عنها من غير تكلف ولا تعسف.

أما الشرك فقد احترز عنه الناظم في قوله:

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِيْ نَبِيِّهِمُ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيْهِ واحْتَكِمِ

فهذا البيت ينفي الشرك عن أبيات هذه القصيدة، ويوجب تأويل ما أوهم الشرك عند بعض الناس.

1. **وأول الأبيات الأربعة قوله:**

وَكَيْف تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَنْ لَوْلاهُ لَمْ تَخْرُجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ

قال المنتقدون: هذا يرده القرآن، فإن الله تعالى يقول: **[** وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ **]**(سورة الذاريات: الآية 56)، أفادت الآية أن الله تعالى لم يخلق الدنيا لأجل النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وكلام الناظم صحيح، وفي القرآن ما يؤيده، والمنتقدون واهمون؛ لأن الله تعالى خلق الجنَّ والإنس لعبادته، وخلق الدنيا والآخرة لأجلهم، وجعل الدنيا مكانًا لعبادتهم، قال تعالى: **[** خَلَقَ لَكُمْ **]** أي لأجلكم **[** مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا **]**(سورة البقرة: الآية 29)، وجعل الآخرة مكانًا لجزائهم، فلولا المكلفون ما خلقت الدنيا والآخرة، والنبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم سيِّد المكلفين، ومن عادة العرب أن يخاطبوا سيِّد القوم بما يشترك معه القوم فيه على سبيل التكريم، فصحَّ قوله: "لَوْلاهُ لَمْ تَخْرُجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ" على قاعدة العرب في مخاطبة السادة والأمراء وذوي القدر العظيم، وفي القرآن الكريم آيات وُجِّه فيها الخطاب للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم مع أن الأمة تشترك معه، وهي من هذا الباب.

2. وثاني الأبيات قوله:

وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ بِهَا وَالرُّسلِ تَقْدِيمَ مَخدُومٍ على خَدَمِ

هذا خطأ لا شك فيه؛ لأن الأنبياء بعضهم مع بعض ليس فيهم خادم ومخدوم، وليس تفضيل بعضهم يقتضي أن يكون المفضول خادمًا للفاضل، بل هم سواء في النبوة، وفي حديث المعراج المتواتر ذكر النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يحيى وعيسى ويوسف وموسى وهارون وغيرهم حين تلقوه حيَّاه كل واحد منهم بقوله: مرحبا بالنبيِّ الصالح، والأخ الصالح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه تعالى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **p** الأَنْبِيَاءُ أُخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ **i** ، الحديث رواه أحمد وأبوداود وصححه ابن حبان والحاكم، وقد أصلحت هذا البيت بقولي:

وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ بِهَا وَكَرَّموكَ لِفَضْلٍ فِيكَ مِن قِدَمِ

وطبعت هذه البردة بهذا الإصلاح في دبي بالإمارات العربية.

ومما يناسب هذا ما شاع عند كثير من الناس أن النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم ركب البراق ليلة المعراج، وجبريل عليه الصلاة والسلام آخذ بركابه، وهذا غير صحيح، وبخسٌ بمقام جبريل عليه السلام وإقدام على نقص قدره، والله تعالى يقول في حقِّه: **[** إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ **]**(سورة التكوير: الآيات 19-21)، فجبريل رسول إلى الأنبياء جميعًا، ومن هذه الآية أخذ الزمخشري في (الكشاف) أفضلية جبريل على النبيِّ صلى الله عليهما وسلم وهو مخطيء في ذلك.

3. وثالث الأبيات قوله:

يا أَكْرَمَ الرُّسْلِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِواكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمَمِ

وهذا عند بعض الناس شرك، وليس كذلك، فإن قوله:

ولَنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللهِ جاهُكَ بِي إِذَا الكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِمِ

قرينة واضحة على أنه أراد: "ما لي من ألوذ به في الشفاعة لله في ذلك الموقف العظيم"، وهذا المعنى صحيح.

فإنَّ النَّاس في يوم القيامة يلجأون إلى آدم ليشفع لهم في الإراحة من طول الموقف وكربه فيعتذر ويقول: "نفسي"، ويحيلهم إلى نوح فيعتذر ويحيلهم إلى إبراهيم فيعتذر ويحيلهم إلى موسى فيعتذر ويحيلهم إلى عيسى فيحيلهم إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: **p** أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا **i** ، فيذهب ويسجد تحت العرش، فينادى: " يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ" هكذا جاء في الصحيحين، وهو الذي أراده الناظم.

والإسراع بالإكفار معصية كبيرة، ربما تؤدي إلى كفر صاحبها، ومع ذلك فقد أصلحت هذا البيت بقولي:

يا أَكْرَمَ الرُّسْلِ مَا لِي مَنْ يُشفَّع فيَّ سِواكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمَمِ

يُشفَّع: مبني للمجهول، والفاء مشددة، أي: ما لي من تقبل شفاعته فيَّ سواك.

وهذا توضيح لكلام الناظم وليس إصلاحًا له.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

وصلِّ اللهم وسلِّم وزد وبارك على سيدنا ومولانا محمَّد وعلى آل بيته وصحبه الطيبين الطاهرين